تم تحميل هذا الكتاب

من موقع الملفات الاسلامية

http://islamicfiles.net

هذا هو الإسلام

islamicFiles.NeT

مدخل إلى فهم الجذور

من أنا ؟ ولماذا ؟ وإلى أين ؟

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان
دار الفكر
دمشق - سورية

HERE'S ISLAM

AN INTRODUCTION TO UNDERSTANDING THE ROOTS

Who am I? Why? & Where to?

Madkhal ilá Fahm al-Judhūr
Man Anā? Wa-li-Mādhā? Wa-ilá Ayn?

Dr. M. Sa'īd Ramaḍān al-Būṭī



أرأيت إلى رجل فتح عينيه بعد نوم طويل ، وبدلاً من أن يجد نفسه يتقلب على فراشه ، رأى نفسه في قطار ، يغذّ به السير إلى حيث لا يدري .

من الذي زجّه في هذا القطار ؟ ومتى كان ذلك ؟ ومن الذي يسوقه ؟ ومن المنظم لسير رحلته ؟ وماذا يراد به من بعد ؟

ترى أيمكن لهذا الرجل أن يكف عن التساؤل عن هذا كله ، وأن يريح أعصابه عن الهياج وعن ملاحقة ما يجهل ، ثم أن يتشاغل ، بما يراه من مناظر الطريق .

لقد فتحنا أعيننا منذ طفولتنا الأولى على حياة لا نعلم شيئاً عن مصدرها ومنتهاها ، وامتدت أبصارنا من حولنا إلى آفاق لا نعلم شيئاً عن جذورها الثابتة ولا عن فروعها المترامية المتطورة ، وقامت في أذهاننا عشرات التساؤلات .

من الذي يجيب على أسئلتنا ؟ العلم ، الفلسفة ، الدين ؟!
هذا ما يحاول المؤلف أن يكشف النقاب عنه في هذا الكتاب ، مفتتحاً به سلسلة يتوجه بموضوعاتها إلى ضمير الإنسان ، بغض النظر عن توجهه العقائدي ، أو انتمائه القومي .

إدريس صاري

Dr. Said Al Bouti

ISBN 1-57547-016-0

المحتوى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

اللهم اهدنا إلى معرفة أنفسنا كي نعرف ذاتك .

واهدنا اللهم إلى تنزيل وحيك كي نعرف واجبنا تجاهك .

واهدنا اللهم إلى معرفة قصة هذه الحياة ، كي نستيقظ إلى المصير الكبير ، مصيرنا بين يديك .

وبصّرنا اللهم بقيمة الغد المنتظر ليوم دنيانا هذه ، حتى نلقى فيها أنسنا المنشود ، وحتى لا يزجنا الوهم ، منها ، في سجن لا محيص عنه وقلق لا معنى له ولا مفرّ منه .

ولكي نهتدي إلى ذلك كله ، أعتقنا اللهم من قيود أهوائنا وعصبياتنا ، وأزل مما بيننا وبين عقولنا كدورات الأوهام .

إنك وليّ كل توفيق .

قطار هذه المرحلة

من أين ؟ وإلى أين ؟

أرأيت إلى رجل فتح عينيه بعد نوم طويل ، وبدلاً من أن يجد نفسه يتقلب على فراشه في غرفة نومه ، رأى نفسه داخل مقصورة من قطار ، يغذّ به السير إلى حيث لا يدري ، ويخترق جبالاً ووهاداً لم يرها ولا علم له بها .

من الذي زجّه فأقعده في هذا القطار ؟ ومتى كان ذلك ؟ ومن الذي يسوقه ؟ ومن المنظم لرحلته والمخطط لتسياره ؟ وماذا يراد به هو شخصياً من بعد ؟

إنه لا يعلم من ذلك كله شيئاً !...

ترى أيمكن لهذا الرجل أن يطوي فكره عن التساؤل عن هذا كله ، وأن يريح أعصابه عن الهياج وعن ملاحقة ما يجهل ،

ثم أن يتشاغل ، لاهياً ساهياً ، بما يراه من جمال الطريق وغرابة المشاهد ؟

وسواء أكانت مقصورته مؤثثة بأفخم الأثاث ، ومزدانة بكل أصناف الملهيات ، أو كانت مليئة بالمنغصات والمزعجات ، أفيمكن أن يتخذ لنفسه من ذلك شاغلاً عما يفرضه عليه سلطان الفكر والعقل ، من القلق والاضطراب ، بسبب تقلّبه ، الذي لا اختيار له فيه ، في بحر ذلك المجهول ؟

ومع ذلك ، فالمشكلة تكون صغيرة نسبياً ، عندما يكون حجم القطار محدوداً ومحاطاً بعالم لا تخفى معالمه وطبيعته ، إذ إنه مهما شرّق به أو غرّب فلن يخرج من قطاره ولن يجوب إلاّ داخل أرضه .

ولكن المشكلة تغدو كبيرة ، وكبيرة جداً ، عندما يكون القطار هو هذا العالم كله ، وعندما تكون حركته متمثلة في سلسلة هذه الحياة الإنسانية من حيث هي . إنها هنا جهالة مطلقة مطبقة وليست جهالة نسبية تحيط بها مساحات مكانية أو زمانية معلومة !..

فنحن فتحنا أعيننا منذ طفولتنا الأولى على حياة لا نعلم شيئاً عن مصدرها ومنتهاها ، وامتدت أبصارنا من حولنا إلى آفاق لا نعلم شيئاً عن جذورها الثابتة ولا عن فروعها المترامية المتطورة ، ومهما سألنا العلم فإنه لا يزيد على أن يضعنا أمام امتدادات زمانية ومكانية لا حصر لها .

وتأملنا في سلسلة التاريخ ، فما التقطت وسائلنا العلمية منها إلا الحلقة الراهنة التي نعيشها ؛ أمّا ما قبلها فمغموس في ظلمات من الغيوب المتصرمة ، وأمّا ما بعدها فمحجوب بتنبؤات وهمية لم تولد من غيبها المكنون بعد ، ومهما اصطحبنا في الغوص إلى الماضي البعيد المنصرم ضياء العلم وسلطانه فإنه لا يعود إلينا منه إلا بحفنة من الافتراضات والأوهام ، ومهما استعنّا بضياء العلم ذاته لاكتشاف الغيب المستقبلي وما سيأتي به الغد القريب أو البعيد ، فإنه لا يحمل إلينا إلا حفنة مماثلة من الافتراضات والأوهام ، وتبقى اللحظات - أو قل الأيام - الراهنة وحدها هي الخاضعة للبرهان العلمي المحصور في أداة التجربة والمشاهدة .

أفيتاح إذن ، للإنسان ، أي إنسان كان ، أن يتجاهل سحب الجهالة السُّود هذه التي تطبق عليه من كل جانب وتحيط به من كل الجهات ، ثم يتشاغَلَ عنها ، ويتناساها ، متسلياً بأهوائه النفسية أو حاجاته العضوية ؟ وهل يوجد في نطاق الطبيعة الإنسانية من يملك مثل هذا الاختيار ؟

ربما تصدت الفلسفة الوجودية للإجابة عن هذا السؤال .

وربما زعم بعض أقطابها أن هذه الإجابة تأتي باسم هذه الخليقة الإنسانية جمعاء ، وإن لم ينطق بها غيرهم .

وملخص الجواب أن الأجيال الإنسانية عانت منذ أحقاب بعيدة تجربة البحث عن أجوبة مقنعة عن هذه الأسئلة ، على شتى مستوياتها الفكرية والعلمية ، بدءاً من الفلاسفة الأفذاذ ونهاية عند ذوي البصيرة الثاقبة من عامة الناس ، فلم يصلوا إلى أي إجابة شافية ، ولا عثروا على أي يقين علمي مُطَمْئِن .

وقد كان لا بدّ أن تنتهي هذه المعاناة بالإنسان ، من جراء

ذلك ، إلى جدار من اليأس ، وأن تزجه في واقع طبيعي من القلق .

وإذا علم الإنسان أن هذه هي الحقيقة التي لا مفرّ منها ولا مردّ لها ، فإن من السهل عليه عندئذ أن يجترّ يأسه ويسكن إلى قلقه ، بل يستأنس به . وما عليه في هذه الحالة إلا أن يتسلّى برغائبه النفسية وحاجاته العضوية عن تطلعاته الفكرية وتساؤلاته الغيبية !..

وتعليقنا على هذه الإجابة التي يرددها أئمة المذهب الوجودي فعلاً ، هو : هل استطاع الإنسان في ماضيه المنصرم أو حاضره اليوم أن يصل إلى جدار هذا اليأس أو أن ينتهي به البحث إلى أقصى درجات القلق ، ثم يجعل من يأسه تعويضاً عن الأمل ، ويركن في سعادة إلى ما يعانيه من القلق ؟

إن الإنسان الغربي أحوج ما يكون اليوم إلى هذه الوصفة الدوائية لو كان فيها شفاؤه المزعوم ، ولقد سمعها وأصغى إليها من وجوديين فرنسيين وألمان وإنكليز ودانماركيين ، ومع ذلك

فإنه لا يزال يعاني من معاناته ، لم يتأقلم مع يأسه ، ولم يركن بأي استئناس إلى قلقه ، وعِلْمُ ذلك كله عند الأطباء النفسيين والطوابير المتزايدة على عياداتهم .

وأنا لا أنكر أن في انصراف الإنسان إلى أهوائه وحاجاته العضوية ما يشغله عن الرَّهَقِ الفكري الذي يلاحقه بحثاً عن قصة هذا الوجود .

ولكن يجب أن نعلم أن هذا الانصراف لن يستمر إلاّ إلى حين .

ومن اليسير أن نعلم هذا إذا تذكرنا أن مخزن المبتغيات النفسية والأهواء الغريزية محدود في هذه الحياة ، بل إن كل ما فيه من المتع محكوم بسنن كونية تضبطه بمقدار لا يتجاوزه في كل من الكيف والكم . فإذا اندلقت النفس إلى أهوائها ومبتغياتها فإنها لا تلبث أن تملّ ما تعودت عليه ، وأن تطمح إلى المجهول والجديد . ومهما أتيح لها أن تتفنن في التطوير والتجديد ، فإنها لا بدّ أن تصل أخيراً إلى الحد الذي لا سبيل لتجاوزه ، وعندئذ

يخيّم الملل .. وتضيق النفس بالمألوف الذي سئمته ثم مجّته .. فبماذا يتسلى ويتشاغل عن القلق الفكري الذي كان يساوره ؟

سيعود القلق من جديد ، وقد أضيف إليه الملل ، والتبرم بالقديم المتكرر الذي سئمته النفس ، وأصبح مستعصياً على أي تطوير أو تجديد .

والنتيجة بعد ذلك هي التبرم بالحياة ذاتها ، والتعرض لشتى الأمراض النفسية والعصبية التي تستعصي بدورها على أي من أسباب المقاومة والعلاج[1] .

هذا الإحباط النفسي مرض خطير للغاية ، أو لعله مصدر

(١) من المعلوم أن الطب النفسي لم يحظ بأي تقدم بعد ، وكل ما يعتمد عليه الأطباء النفسانيون في نطاق المعالجة هي الأدوية المسكنة والمهدئة التي تزج المريض أخيراً في شرٍّ من المرض الذي يعاني منه .. وسرّ هذا التخلف الراكد في مكانه أن علماء النفس الغربيين لا يزالون يصرّون على أن الكتلة المادية في كيان الإنسان هي مصدر وعيه وأحاسيسه وتقلباته النفسية ، وهذا التصور يدفعهم إلى معالجة اللوحة الجسدية في كيان الإنسان كلما انتابه خلل نفسي ، فيقع الجسد من ذلك في اضطرابات جديدة ، ويبقى الخلل النفسي كما هو .

لأمراض خطيرة للغاية ، غير أن أخطر ما فيه أنه يتسرب إلى الكيان الإنساني ثم يستقر فيه ويأخذ منه بمجامع النفس ، وراء ستار كثيف من التقلب في الملاذّ والمتع والأهواء النفسية والتطوح في المنسيات والملهيات بكل أصنافها الممكنة .

فالناشئ من الشباب ، لا يرى ، عندما يطلّ على هذه المجتمعات إلاّ بريق المتع والأهواء وألوان اللهو والطيبات .. ومن ثم فإنه غير مستعد لافتراض أن أي مرض يمكن أن يحتل الآن مكانة من نفوس أبطال هذه الشهوات والأهواء ، وأنه سيعصف بهم عما قريب .

والمتقدم عنهم في السن ، ممن خاضوا تجربة التقلب في دنيا الأهواء ، وغمسوا أنفسهم أكثر من مرة في بحر اللذة والإباحية المطلقة ، يشعرون بالكرب المطبق عليهم والغصة التي تأخذ بخناقهم ، ولكنهم وقد سدّت أمامهم المنافذ وأخفقت كل المعالجات ، لا يجدون ملاذاً من كربهم هذا إلا في الإقبال على مزيد من اللهو والنسيان .. ومهما وجدوا أن هذا الملاذ

لا ينجيهم من وحشتهم المطبقة ، فإنهم لن يشعروا بأي غنى عنه ، ما داموا أنهم لا يجدون أيّ بديل عنه .

هذا الواقع الذي يتجسد واضحاً للعيان في المجتمعات الغربية هو الستار الكثيف والخطير الذي يتسرب هذا الداء من ورائه إلى كيان الإنسان الغربي ليستقر منه في أعماق نفسه ، ولينتهي به أخيراً إلى حالة لا يجدي معها أي علاج .

ثم إن هذا الستار نفسه هو الذي يحول دون إصغاء إنسان الحضارة الغربية إلى من يحدثه عن حقيقة العلاج ، أو إلى من يرشده إلى البوابة التي بوسعه أن يعبرها فينشط من عقال ، ويتخلص من الكروب التي تلاحقه ، والوحشة التي تحيط به .

ذلك لأنه يتعلق بما يراه من الملهيات والمنسيات ، تعلّق الغريق بما يراه من قطعة حبل ممتدّة إليه ، أو لوح يتهادى قريباً منه ، وإن كان الحبل أو اللوح لا يغني عنه شيئاً .

عامل آخر ، يشترك في الحيلولة دون إصغاء هذا الإنسان إلى من يحدثه مخلصاً عن العلاج ، هو هذه المنجزات العلمية

المذهلة في نوعها والكثيرة في كمّها ، والتي خيلت إلى رجل الحضارة الغربية أنه أصبح اليوم يقبض على زمام الكون والطبيعة يتحكم بها كما يشاء ويسوقها إلى حيث يريد .

فأنى له أن يصغي إلى من يتهمه بالجهل والمرض ، ليعلّمه ويعرفه بالعلاج ، لا سيما وإن هذه النصيحة لا تأتي في الأغلب إلا من جهة تلك الأصقاع المتخلفة التي تسمى - شفقة عليها - بالنامية !.. إن أقل وأسرع ما قد يخطر في بال هذا الإنسان الغربي ، عندما يتلقى دعوة إلى سماع مثل هذه النصيحة ، هو أنّ على هذا الناصح أن يبدأ فينظر إلى حاله ويبحث عن علاج مادي أو نفسي يحرره من آصار جهله وتخلّفه .

ومن المؤسف أن المنطق ، في هذا الجو الغربي العاصف ، يكون مغلوباً عليه .

وإلاّ ، فما أيسر لمن يتاح له أن يصغي إلى صوت العقل الصافي عن الشوائب ، أن يدرك أن الأمراض متنوعة ومختلفة ، منها ما هو ماديّ ناشئ عن أسباب مادية ، يُعالج بوسائل مادية

مناسبة ، ومنها ما هو نفسي ناشئ عن عوامل نفسية خفية ، يُعالج بوسائل نفسية خاضعة لموازين العقل والمنطق .

وإذا كان الإنسان العَربيُّ أو الشرقيُّ يعاني من تخلف مادي قضي به عليه ، لأسباب مادية متنوعة ، جلّها يتمثل في استغلال القويّ للضعيف ، أو في عوامل خارجة عن إرادة هذا الإنسان وطاقته ، فليس من مستلزمات ذلك أن لا يكون معافى من سائر الآفات والأمراض الأخرى ، بل الواقع أنه معافى ، بكل تأكيد ، من معظم الآفات والأمراض النفسية التي تجتاح المجتمعات الغربية اليوم ، وإن الشواهد على ذلك معروفة وواضحة للعيان ، وحسبك أن تعلم أن عدد المنتحرين عندما يبلغ - في آخر إحصاء علمناه - في جامعات الولايات المتحدة وحدها ، خمسة عشر ألفاً ، أو يزيد ، فإنّ البلاد العربية كلها لم تسجّل ١٪ من هذا العدد الكبير انتحروا في ربوعها ، حتى في أحلك الظروف القاسية التي مرّت بها .

وهذا يعني بالتأكيد أن التخلف المادي الذي يأتي في أكثر الأحيان قهراً ، شيء . والأمراض النفسية والعصبية التي

تستشري في داخل الكيان الإنساني شيء آخر . وإذا جاءت هذه الأمراض النفسية مقنعة بالتفوق المادي والتقدم الحضاري ، فذلك لا يعني أن تلك الأمراض لم تعد موجودة ، وإذا كانت العافية الداخلية من هذه الأمراض مجلّلة بأقسى مظاهر التخلف المادي والحضاري ، فذلك لا يعني أن العافية الداخلية غدت وهماً لا وجود له .

والأمل كبير ، وكبير جداً ، في أن تكون العافية النفسية للشعوب المتخلفة خير أداة يحررها من تخلفها في وقت قريب .

ولكن الخوف كبير ، وكبير جداً ، من أن تتحول الأمراض النفسية المستعصية ، في الشعوب المتقدمة ، إلى أداة ناسفة تنسف عوامل تقدمها واحداً إثر آخر ، وإذا هي بعد حين تتمرغ في قاع التخلف والفقر والحرمان .

ولا شك أن كلاً من هاتين الحركتين المتناقضتين في دنيا الشعوب والمجتمعات ، لا ترصده العين الإنسانية المجردة ، ومن ثم فعسير جداً على من يعتمد في هذا ، على مقاييس الأبنية الباسقة

والأضواء الساطعة والمصانع الناشطة ، أن يدرك شيئاً مما نقول أو أن يقتنع به . ولكن من اليسير جداً على من يتأمل بعين التاريخ ومقاييس علم الاجتماع أن يدرك حقيقة ما نقول ، وأن يرصد هاتين الحركتين المتعارضتين فعلاً ، بل من اليسير عليه أيضاً أن يضرب ميقاتاً محدداً لكل من النهاية الصاعدة والهابطة اللتين إليهما المآل الحتمي لهاتين الحركتين المتعارضتين .

غير أن الأمر في حقيقته ما ينبغي أن يفهم أنه منافسة حادة بين فريقين في عالم هذا المجتمع الإنساني .

بل الحقيقة القدسية التي يجب المثول أمامها ، والعمل جهد الاستطاعة على رعايتها ، هي أن المجتمع الإنساني ، على اتساعه ، فريق واحد ، بل أسرة واحدة .. والمأمول أن يشيع فيما بينها الود والتعاون بدلاً من الكراهية والتآمر .

أجل ، إن شعوب هذا الشرق الإسلامي تعاني من تخلف وأي تخلف .. ولكن كما أن موطئ قدمه من الأرض يحوي ذخراً من الكنوز والخيرات التي لا تنضب ، لو أحسن رعايتها

والتصرف بها ، فإن وراء صدره وفي مكنون وعيه حقائق عن قصة هذا الكون وموقع الإنسان منه ، من شأنها أن تحلّ كل لغز مبهم وأن تحرر الإنسان الغربي وغيره من كل أسباب اليأس والقلق ، وأن تحيل علاقته بالحياة ، كيفما كانت ، إلى أنس دائم وإلى سعادة تامة لا شقاء بعدها .

فلماذا لا يصغي الغرب إلى هذا المكنون العلمي الذي يحتفظ به الشرق منذ عصور الرسل والأنبياء ...؟ ولئن أصبح هذا المكنون العلمي اليوم مجرد سرٍّ هامد وراء الصدور ، فما أكثر ما كان قبل اليوم مشرق حضارة ، ومصدر قوة ، ومعين علوم ورشد ، وما أكثر ما أحيا شعوباً من رقادها ، بل بعث أمماً من قبورها !... وهل تحقق الفتح الإسلامي ، وهل أمسك العرب من دون الفرس والروم بأزمّة الحضارة - وقد كانوا قبل ذلك قبائلَ هملاً يتسكعون على هامش التاريخ - إلا بسرّ هذا المكنون العلمي عن قصة الإنسان والكون والحياة .

وهب أن العرب اليوم قد نسوا أو تناسوا التعامل مع هذه الحقائق ، أفليسوا ، على كل حال ، مستودعاً أميناً لها ؟..

وعلى كل حال فإن الذهول أو الرقاد لن يتحول إلى موت . ومهما طال الرقاد فإن عوامل كثيرة ستبعث يقظة جديدة ، في أغلب الظن ، في كيان العرب وسائر المسلمين ، وسيتعاملون مع هذه الحقائق الإيمانية بصدق من جديد ، والمأمول عندئذ أن تعود الأقدار الإلهية فتضع زمام الحضارة الإنسانية المثلى في يد هذه الأمة من جديد . كما وضعتها في يدهم من قبل .

وهو احتمال مدروس يتوقعه غير المسلمين أكثر مما يتوقعه المسلمون أنفسهم ، يقول كونستانتان جيورجيو في روايته المعروفة (الساعة الخامسة والعشرون) :

« إن هذا الانبهار الآلي سيعقبه اعتراف بالموهبات الإنسانية ، وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولا شك ، من آسيا ، ولكن ليس من روسيا ، إن الروس قد انحنوا خاضعين أمام نور الغرب الكهربائي .. سيكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي ، إنه لن يضيء بنور النيون خطوط الفكر والقلب ، إن رجل الشرق سيجعل من نفسه سيداً للآلات والمجتمع الآلي »[(١)] .

(١) الساعة الخامسة والعشرون : تأليف كونستانتان جيورجيو ص ٤٤٠ .

إن تفاعل الإنسان الشرقي بهذه الحقائق الإيمانية التي تتحدث عن قصة الكون والإنسان والحياة ، هو الذي سيبعث على هذا التحول ولا ريب .

ولكن هذه الحقائق مطروحة أمام الوعي الإنساني أياً كان ، وليست حِكْراً لعقل الإنسان الشرقي دون الغربي .

فلماذا لا يكون رجل الغرب ، رجلُ الحضارة الحديثة ، هو السباق في هذه المرة إلى اقتناص هذه الحقائق ؟ أليس في الحصاد المرّ الذي جناه الغرب من وراء هذه الحضارة الرائعة في بريقها والقاتلة في مذاقها ، ما يرشحه للخوض في تجربة جديدة ؟

وهل أمام الغرب والشرق من تجربة جديدة اليوم ، إلا المثول أمام مرآة الذات ، ثم الإصغاء إلى قصة الإنسان والكون والحياة . على أن لا نصغي إليها تخيلاتٍ وأوهاماً من إنسان مخلوق مثلنا ، بل نصغي إليها حديثاً يتلى من الصانع نفسه ، كما يصغي أحدنا في التعرف على جهاز جديد ، إلى النشرة المقرونة به ، والموثقة بتوقيع المصنع ذاته الذي أبدع هذا الجهاز .

وإذا عرفنا أنه لا فرق بين جهاز صغير نضعه في بيوتنا ، وهذا الجهاز الكوني الكبير الذي وُضِعْنا في داخله وكتب علينا أن نتحرك في أقطاره ، أدركنا أنه لا مناص من أن نتعرف على أنفسنا من خلاله ، ثم نتعرف عليه من خلالنا .

وعندئذ فقط يتاح لنا أن نتبيّن مواطئ أقدامنا الصحيحة خلال رحلتنا في فجاج هذه الحياة .

عبث الحياة الإنسانية

تكذّبه جدّية النظام الكوني

عندما يحاول الإنسان أن يكفي نفسه مؤنة التعرف على ذاته ، والبحث عن قصة وجوده ، يستقر في نفسه شيئاً فشيئاً ، أنه مجرد أحدوثة عابرة في فجاج هذا الكون ، وعلى معبر هذه الحياة ، هذه الحياة التي لا يستبين لها مبدأ ، ولا يلوح في سلسلتها أي انتهاء .

وإذا استقر هذا التصور لديه ، لم يكن قصارى همه سوى السعي اللاهث إلى مغانم الحياة ، والفرار ، جهد الاستطاعة ، من مغارمها .

ولا شك أن هذا السعي أبعد ما يكون عن مجال التهيؤ لتحمل أي رسالة أو النهوض بأي مهمة تتعلق بطبيعة هذه الحياة ، إذ الأمر لا يعدو ، حينئذ ، أن يكون عبثاً كالذي يجنح إليه الصغار .

ولعل من اليسير عليك ان تدرك أن الإقبال على متع الحياة ، عندما يكون مفصولاً عن بلوغ أي غاية من ورائها ، وطليقاً عن أي قيود تضبطها أو تحدّ منها ، فذلك هو العبث الذي لن ترى شيئاً أعبث منه .

ولكن هل الحياة الإنسانية ، في واقعها الذاتي ، هي هذه العاصفة العابثة ؟ وهل الإنسان وحده هو صاحب القرار في كل ما يتخذه من لهوه العابث ؟

لو أتيح لنا أن نجيب عن هذا السؤال بالإيجاب ، إذن لاقتضى الأمر أن نجد الكون كله مجرد كتلة عابثة ، لا تنضبط بنظام ، ولا تسير على نهج ، ذلك لأن الحياة الإنسانية جزء أساسي من هذا البنيان الكوني ، ومن ثم فلا بدّ أن يشملها نظام ، أو وضع ، كلّي واحد .

غير أنا إذا استعرضنا جوانب هذا الكون وأجزاءه ، على اختلافها ، لم نجد فيه مظهراً لعبث .

إن كل ما تراه أبصارنا ، أو تدركه بصائرنا ، بدءاً من

الذرة وجزيآتها ، إلى الأفلاك وتحركاتها ، إلى ما وراء ذلك من المجرات ، عاكف على وظيفة لا يشرد عنها ، منضبط بنظام لا يتحول عنه ، وسواء أنظرت إلى الأشياء في هياكلها الكلية ، أو من خلال أجزائها التركيبية ، فإن الأمر لا يختلف ، الكل والأجزاء وأجزاء الأجزاء ، ماض في مهامه عاكف على وظيفته ، جادٌّ في تحمّل أعبائه والسير إلى غاياته .

لا شك أنك تابعت كثيراً ، صور الحياة ، في عالم البحار ، وأنك وقفت على مشاهد كثيرة من أنظمة الحياة الحيوانية والنباتية في الغابات وعلى شواهق الجبال وفي مسارب الأرض ، فهل رأيت أثراً لعبث في شيء من هذه الصور والمشاهد كلها ؟ وهل وقفت منها إلا على أنظمة جادة ووظائف صارمة ؟ كلٌّ أنيط بمهمة فهو عاكف عليها بجدّ ، منصرف إليها بأمانة ، تماماً كما قال الله عز وجل عنها في محكم تنزيله : ﴿ كلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسبِيحَهُ ﴾ [النور : ٤١/٢٤] .

ولا شك أنك تتبعت حياة الحيوانات العجماوات في مراتعها

وغاباتها ، فرأيت أنها مقيدة من غريزتها بنظام أشدّ مضاء وصرامة ، من أنظمة القوانين المرعية في حياة الإنسان .

فبحثها عن الطعام والشراب مقيد بنظام ، وهجرتها واستيطانها يأتيان طبق نظام ، وعلاقاتها الجنسية تبدأ وتنتهي في مواسم ومواقيت محددة لا تتجاوزها . وحتى السّباع الضارية ، لا تتحرك في عدوانها وافتراسها إلا ضمن نظام ومنهاج ، ومن مظاهر هذا النظام أن الجوع هو الذي يهيج لديها غريزة الهجوم والافتراس ، حتى إذا شبعت واطمأنت إلى الطعام الذي يكفيها في أكنانها أو جحورها ، تخلت عنها تلك الغريزة إلى حين .

هذا ، بالإضافة إلى أنك تعلم أن الإنسان يتبوأ ، من حيث الخصائص والمزايا التي ينفرد بها عن المكونات الأخرى ، مركز السيادة والصدارة في هذا العالم ، فهو ، من دون سائر المخلوقات الأخرى المنثورة على هذه الأرض من حوله ، الكائن الذي يملك سرّ المنطق والإدراك ، ومن ثم فهو الذي أوتي مقاليد التحكم

بكثير من الأجهزة الكونية المبثوثة من حوله ، بل إنه يتمتع بصفات فريدة ترشحه للسيادة المطلقة فوق هذه الأرض .

إذن فالعالم الذي يحيط بالإنسان لا يعرف أي عبث ، بل لا تتراءى في شيء من جوانبه وأجزائه ، مهما دقت ، إلا مظاهر الجد والانضباط بالأنظمة السائرة إلى أهداف محدَّدة .

ومما وصف الله تعالى به ذاته في القرآن ، أنه ذاك ﴿ الَّذي أَعطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه : ٥٠/٢٠] .

أي أخرج كل شيء في مظهره الإبداعي الذي صاغه عليه ، ثم بثّ فيه وظيفته التي ضبطه بها ، وأقامه على المنهاج الذي سيّره عليه[١] .

(١) مقتضى المنهج الذي التزمناه ، من التدرج بالقارئ الذي قد يفترض أن لا يكون قد آمن بالله بعد ، أن لا نستشهد في هذه المرحلة من البحث بشيء من كلام الله عزّ وجلّ . ولكن هذا الاستشهاد يأتي هنا في ميقات أو مناسبة تكشف عن واحد من الأدلة الكثيرة على أن القرآن ليس كلام مخلوق ، بل هو كلام الله ، وعلى كل فلمن لم يكن مؤمناً بالله أو بكلامه بعد أن ينتظر إلى المرحلة التالية من هذا البحث .

أفيعقـل ، فيما يقرره المنطـق ، أيَّ منطـق ، أن تكـون الأكوان المحيطة بالإنسان ، عاكفة ، بسائر شرائحها وأجزائها ، على مهامّ ووظائف جادّة هادفة صارمة ، ثم يكون الإنسان وحده الذي هو محور هذه المكونات ، والمتميز عنها جميعاً بخصائص الوعي والإدراك والعلم ، هو مظهر العبث في الوجود ، الشارد عن أيّ مهمة ، الطليق عن أيّ هدف أو قيد ؟!..

أفيُعقل أو يُتصور أن يعمد هذا الذي أقام سائر هذه الموجودات على وظائفها ، وألزمها بالسعي إلى غاياتها ، أيّاً كان في حقيقته وذاته ، فيتجه إلى الإنسان ليقول له مُطَمْئِناً ومدللاً : أمّا أنت فلك أن تعيش كما تشاء وأن لا تلتزم بأي مهمة وأن لا تسعى إلى أيّ غاية ، افعل كل ما يروق لك فعله مما تبلغه قوتك أو تدركه حيلتك من قتل ونهب وظلم ، وسواء عليك أزرعت الأرض خيراً أو ملأتها فساداً ودماراً ، فلن ينالك من ذلك أجر ولا عقاب !..

أغلب الظن أنه ليس بمقدور أي عاقل أن يتصور عالماً من

الموجودات المنتظمة المنوطة بمناهج وأهداف محددة ، يتمحور حول كتلة من العبث والفوضى والتحرك العشوائي المنبتّ عن أي غاية أو هدف ، لا سيما إن كانت هذه الكتلة هي المجتمع الإنساني .

يقول بعضهم : إن في الخصائص التي يتميز بها الإنسان ما يفرض عليه أن يكون طليقاً بعيداً عن أي ضابط أو قيد ، وأبرز هذه الخصائص ما يتمتع به من الحرية ، فلئن بدا الإنسان في تصور البعض عابثاً في تصرفاته وأعماله ، فلأنه يمارس حريته التي هي جزء لا يتجزأ من جوهر وجوده ، ولئن بدت الموجودات الأخرى في تصور هذا البعض منضبطة بنظام ، سائرة إلى غايات وأهداف ، فلأنها فقدت العمود الفقري في معنى الوجود الماهوي الصحيح ، إنها تتصف بمظهر الوجود ولا تتمتع بحقيقته وسره . ومن ثم فإنّ أي دعوة للإنسان إلى أن يضبط نفسه بقيود وأهداف ، تعني دعوته إلى أن يتجرد من جوهر وجوده ، ألا وهي الحرية التي هي مصدر ذاتيته[1]

(١) هذا ما يقوله الوجوديون ، ويتبعهم في ذلك كثير من الناس لا سيما في =

وجوابنا عن هذا التصور الذي ينجرف فيه كثير من الناس ، لا سيما في المجتمعات الغربية ، أن الحرية في تعريفها البسيط لا تعني أكثر من القدرة على التحرك ضمن أبعاد واتجاهات شتى ، ولما كان التحرك في وقت واحد في هذه الاتجاهات كلها غير ممكن ، فقد كان لا بدّ من اللجوء إلى الاختيار ، والاختيار لا يمكن أن يقوم إلا على أساس تصور سابق وهدف مرسوم .

ومن هنا ينبثق معنى الوظيفة وضرورة الانضباط بهدف ونظام ، في حياة الإنسان .

إن الحرية التي يتمتع بها الإنسان لا تقصيه عن الانضباط بمعنى الوظيفة في حياته العضوية والاجتماعية ، بل تجعله يركن إليها عن طواعية واختيار .

وبتعبير آخر أشمل وأدق : إن عالم الجمادات والنباتات

= المجتمعات الغربية . انظر : سيرن كيركجورد للدكتورة فوزية ميخائيل ص٥٦ ، والوجودية مذهب إنساني لسارتر ص ٢٥ .

مسوق إلى القيام بوظائفه بمقتضى الحكم التكويني ، وإن عالم الحيوانات المختلفة والمتنوعة ، مسوق إلى وظيفته بمقتضى الحكم الغريزي ، بينما ينفرد الإنسان بالدعوة إلى القيام بوظيفته بمقتضى الحكم التكليفي .

لقد كان الإنسان ، نظراً إلى الخصائص التي يتمتع بها ، ومنها الحرية ، أكرَمَ من أن يُقْسَرَ على وظيفته الخاصة به ، بقرار تكويني ، أو أن يحمل عليها بسائق غريزي ، بل كان مقتضى ما تميز به من نعمة الإدراك ، ومن ثم حرية الاختيار ، أن يُدْعى إلى القيام بها بخطاب تكليفي . ثم إنه يملك بمقتضى حريته التي يتمتع بها أن يستجيب أو لا يستجيب ، ولكنه لا بدّ أن يتحمل ، بمقتضى إدراكه وعلمه بالنتائج ، مغبّة إعراضه عما كلف به ، من الآثار المشقية له ولبني جنسه ، كما لا بدّ أن يجني ثمار استجابته له ، من مقومات الخير والسعادة له ولبني جنسه .

وإنه لأمر عجيب ، بل مذهل ، أن يكون في العقلاء من يتصور أن مقتضى الحرية التي يتمتع بها الإنسان ، أن يمارسها بمعزل عن العقل الذي لا بدّ من اللجوء إليه لحسن الاختيار !..

إن الحرية ليست أكثر من سبيل يملكه الإنسان إلى الاختيار ، فإذا تجاوز هذا السبيل ، فلا مناص من اتباع قرار العقل فيما ينبغي أن يقع عليه الاختيار . ذلك لأن الخيارات المتعددة التي يواجهها الإنسان بمقتضى حريته ، متفاوتة ومتنوعة فيما تنطوي عليه من خير أو شر ، وفيما قد تجره من المصالح أو المفاسد ، وهذا التفاوت أو التنوع آتٍ من واقع السنن الكونية المحيطة بالإنسان ، بل الحاكمة عليه ، والتي ليست له أي حيلة في التغيير منها أو التحكم بها .

إنك قد تملك بمقتضى حريتك اختيار أيّ من الكؤوس الخمسة التي تقدم إليك ، ولكنك لن تستغني عن التقيد بنصيحة عقلك فيما ينبغي أن تأخذه وتتجنبه منها ، عندما تكون مزيجاً من أشربة ضارة ومفيدة .

ومن هنا ينبثق معنى كون الإنسان موظفاً في هذه الحياة .. إن وظيفته تتلخص في أن عليه أن يبدأ فيتعرف على هذه الكؤوس المترعة الكثيرة التي تتزاحم مقبلة عليه من أقطار هذه الدنيا المحيطة به ، ثم ينتقي منها ما يتفق مع طبيعته

وحاجته ويساعد في تحقيق سعادته ، ويعرض عما يتنافى مع طبيعته ويناقض حاجاته ومقومات سعادته .

وهكذا ، فالحرية أداة تبصير للإنسان بالحِكَم والأسباب الكامنة وراء مهامّه التي يجب أن يمارسها ويتقيد بها ، بكل طمأنينة وقناعة . وليست بركان ثورة يتفجر في كيان الإنسان ضدّ هذه المهام والوظائف التي يجب أن يتقيد بها .

غير أنّ أحدنا ، وقد وصل إلى القناعة بما قلناه إلى الآن ، لا بدّ أن يسأل عن طبيعة هذه الوظيفة التي عُهد بها إليه ، وعن حجمها وحدودها ، كما لا بدّ أن يسأل عن الجهة التي قيدته بهذه الوظيفة وأصدرت إليه أحكامها الملزمة بها .

يطيب لبعض الناس أن يبادروا في الإجابة عن هذا السؤال بأنها الطبيعة !.. ذلك لأن هذه الطبيعة قائمة على نهج ، سائرة وفق أحكام ، ولما كان الإنسان واقعاً في فلكها داخلاً في نطاق جاذبيتها ، فقد كان عليه أن يدرك أحكام الطبيعة هذه ثم ينسجم معها ويسير وفق تيارها .. فتلك هي الوظيفة التي

أنيطت بالإنسان ، واقتضى نظام الواقع التقيد بها وليس ثمة أي شيء آخر وراء ذلك .

غير أن الناس كلهم ، أو العقلاء منهم على أقل تقدير ، قائمون بهذه الوظيفة متقيدون بها ، إن طوعاً أو كرهاً .. فليس في العقلاء من لا يجاري نظام الطبيعة في الحر والبرد ، أو في تعامله مع الأطعمة ، حسب خصائصها وآثارها الضارة أو المفيدة للجسم ، أو فيما تقدمه الأرض للإنسان من ذخر في داخلها أو خير في خارجها ، أو في التوقي من آفاتها المتوقعة والتعرض لعطاآتها الحميدة .

ولكن قيام الناس بهذه الوظيفة التي تتم بشكل آلي تقريباً ، لا يسدّ شيئاً من الحاجة التي نتحدث عنها ، ولا يشكل أي جواب مُطَمْئِنٍ ومقنع عن السؤال الذي كان ولا يزال يلاحق الإنسان ، ويملأ نفسه قلقاً ويسلمه إلى لون فريد من الوحشة والرَّهق .

من أنا : في كينونتي الذاتية ، لا في هيكلي الجسدي ؟ من

أي مصدر انبعثت وإلى أي غاية أسير ؟ ما الموت الذي يتربص ، منذ فجر الوجود ، بكل حي ؟ هل هو عدم بعد وجود ، وسكون بعد حركة ، وخمود بعد اشتعال ، أم هو منفذ فريد وعجيب إلى حياة أخرى ؟ وما الذي ينتظرنا عندما ننفذ من بوابة الموت إلى تلك الحياة ؟ ترى هل يتحكم نوع السلوك الذي نمارسه في حياتنا هذه في طبيعة الحياة التي سنحياها بعد الموت ؟ وهل بعد تلك الحياة التي يسمونها البرزخية من نقلة أخرى ؟ وما النهاية إن كانت هناك نهاية ؟.

والسؤال الذي يفرض نفسه بعد سلسلة هذه التساؤلات هو هل أنا المسؤول عن ذاتي والقيّم على كل شؤوني في هذا العالم ، أم هنالك من أدين لسلطانه وأتحرك في قبضته ، فهو القيّم عليّ والمتكفل بشأني ؟ وإذا كان هذا القيم موجوداً فما هي مسؤولياتي تجاهه وما أصل العلاقة القائمة بيني وبينه ؟

إن هذه الأسئلة التي لا بدّ أن ترتسم في ذهن أي عاقل ، هي من الكبر بحيث تشمل واقع الإنسان مع الطبيعة المحيطة به . أي إن مناط السؤال هو هذا الكل الكوني الكبير الذي يبرز

الإنسان جزءاً محورياً في داخله . ومعنى ذلك أن الجواب المنطقي عن هذه الأسئلة يجب أن يأتي من خارج هذا الكل الكوني الذي هو في مجموعه مصدر هذه الأسئلة والباعث على البحث الدائب عن إجابة شافية عنها .

ولقد عرفنا أن أي فرار من وقع هذه الأسئلة ، إلى التناسي أو التجاهل ، لم يحلّ ولن يحلّ المشكلة . كما عرفنا أن الإجابة التي تتفلسف على ألسنة الوجوديين أو الملحدين أو اللاأدريين ، قائلةً : إن الإنسان لا يضبطه قيد ولا يحدّه نظام ، وما ينبغي أن يحجِّم حريته بأي غاية خارجة عن اختياره الداخلي ورغبته الذاتية ، هذه الإجابة لم تزد على أن زجّت الإنسان في مزيد من القلق والكآبة . ولا يمكن للعقل أن يمجّ تصوراً خاطئاً كتصور أن هذا الكون الذي يعكف بكل أجزائه على وظائف دقيقة لا يحيد عنها ، والذي يتجه إلى غايات مرسومة لا يشرد عنها ، يتمحور في الوقت ذاته على كتلة من العبث والفوضى ، تتمثل في الإنسان الذي هو لباب الكون وصاحب السيادة المطلقة في داخله .

الآن ، وقد أتيح للقارئ - فيما أتصور - أن يفقه هذا الذي قلته وأن يقتنع به ، لا بدّ أن يقول : فمن هو هذا الذي ينبغي أن أتجه إليه بأسئلتي هذه ؟

ومن هو هذا الذي عساه يعلم ما قد جهله الإنسان ، وهو سيد هذا العالم والمختص دونه بالوعي والعقل ؟

والجواب أنها ، حقّاً ، مشكلة !..

وعلى كل فإن هذا السؤال لا بدّ أن يوجه إلى كائن ما ، خارج أقطار هذا العالم المحسوس ؛ ولكن من هو هذا الكائن ؟ بوسعنا في نهاية الفصل التالي أن نتعرف عليه .

أيّاً كان ، فإن المشكلة الكبرى تتمثل في تجاهل الحقيقة التي فرغنا من بيانها ، والفرار منها إلى اجترار الواقع ، ومواصلة السير من فجاج الحياة في نفق مظلم ذي اتجاه واحد ، مع اليقين بأنه مسدود .

إن الاستسلام لهذا التصور هو المشكلة الكبرى .. ومهما أضيئ هذا النفق بعد ذلك ، بخطوط النيون ، أو أضواء اللهو

الساطعة أو الخافتة ، فإن السير فيه مع هذا التصور واليقين ممارسةٌ حتميةٌ لاختناق بطيء .

وأولى خطوات التخلص من هذه المشكلة تتمثل في الاقتناع التام بضرورة طرح هذا التساؤل باهتمام وجد .

عندئذٍ سيتاح لنا التعرف على الجهة التي ينبغي أن نقبل إليها بأسئلتنا هذه ، وسنجد أننا بهذه الطريقة وحدها نملك أن نتحرر من هذا النفق ، الوهمي الخانق .

لا مفرّ من المثول أمام حكمة الصانع

عندما يجهل الإنسان سرّ هذه الحياة ، وحجم العالم الذي يعيش داخل أقطاره ، من حيث الزمان والمكان ، لا بدّ أن يتبرم أخيراً بعيشه ، وأن يستوحش من العالم الذي يحيط به .

وعندما يحاول أن يخترق بفكره الذاتي أسرار الحياة ، وأن يقف على حقيقة هذا العالم وحدوده الزمانية والمكانية ، لا بدّ أن ينتهي من بحثه أمام سدّ من الجهالة المطلقة لا يقوى الفكر على اختراقه .

وتلك هي المشكلة . فما السبيل إلى حلّها ؟

السبيل الوحيد هو أن يتحرر ، بفكره ، من دخائل العالم الذي يعيش كقطعة صغيرة ، وصغيرة جداً ، تتحرك آلياً بين أجزائه ، ثم يتوجه بفكره إلى الجذور والعوامل الخارجية التي تبعث الحركة الكلية المنبثة في أجزاء العالم كله ، وتقيه على هذا

النظام الدقيق ، الماثل أمام الأبصار والبصائر كلها ، متجهة به إلى غايات لا يخطئها .

إن التأمل في هذا العالم من خلال الانحباس الفكري ضمن أجزائه وداخل ضجيجه ، يُضل ويحيّر ، ولا يبعث أخيراً إلاّ على الاستسلام للمجهول .

أما التأمل فيه من خارجه ، ومن مستوى الإشراف عليه ، فمن شأنه أن يهدي إلى الحقيقة مهما كانت خفية ، وأن ينبه إلى العوامل والجذور الخارجة عنه والموصولة به .

غير أن دور الفكر هنا ، على أهميته ، محدود جداً ، إن بوسعه بعد هذا التحرر الذي ألمحنا إليه ، أن يكتشف ما هو أهم وأخطر من حقيقة العالم الذي يعيش فيه ، ويتحرك ضمن فلكه وداخل أقطاره . حتى إذا وقف من اكتشافه هذا على يقين ، اصطدم بحدود لا قبل له باختراقها . ولا سبيل له إلى التحرك قدماً إلا بمعونة ضياء إضافي آخر إلى جانب نوره الذاتي الذي نسميه العقل أو البصيرة ، وسنتحدث عنه في حينه .

فما هي الحقيقة التي هي أبلغ خطورة وأكثر أهمية ، من هذا العالم اللامتناهي الذي نتقلب داخل أمواجه ، والتي بوسع العقل وحده أن يكتشفها بعد أن يتحرر من منعرجات التيه الداخلي لهذا العالم ، ويتاح له أن يتأمله كليّاً من شرفة فكرية باسقة متحررة ؟

إن هذه الحقيقة هي الله عزّ وجلّ !..

وهي حقيقة ستظل خفية عنك ما دمت تقبع من الدنيا في دائرة لهو صغيرة ، أو تتحرك منها في نطاق معيشة محدودة ، ولكنها ستبدو أمامك واضحة جلية عندما تتأملها في مظهرها الكلي ، بعيداً عن ضجيج لهوك وأسباب مصالحك وعيشك .

وما دمت بعيداً عن إدراك هذه الحقيقة الكبرى ، فلسوف تبقى مشكلتك مع هذا العالم قائمة ، ولسوف تظلّ أسئلتك الملحّة تنتظر الجواب .

قدّر الآن أنك تحررت ساعة من الزمن عن علاقاتك الجزئية بأسباب عيشك العابرة ، وعن ارتباطك الآلي بنسق

حياتك ، وعن تطلعاتك النفسية إلى فرص لهوك .. إذن فلسوف يتجه منك الفكر ـ شئت أم أبيت ـ بالبحث الجاد عن جذور هذا الكون وأصل وجوده وسرّ انتظامه .

إن قيل لك إن هذه الموجودات الكونية كانت مسبوقة بعدم مطلق ، قال لك المنطق والعقل الإنساني ، ولكن الأصل بقاء ما كان على ما كان ، فما الذي حول سلطان العدم المطلق إلى نقيضه ، وكيف ترجحت كفة طائشة وطاشت كفة كانت راجحة دون أي عامل خارجي ؟

وإن قيل لك : إن العامل هو التفاعل الذاتي ، فهو الذي فجر الوجود من العدم ، وأبدع النقيض من النقيض ، أجاب المنطق والعقل الإنساني ، ولكن التفاعل المقبول في العقل ، هو ما يتم بين جزأين موجودين ضمن كلٍّ واحد ، كتفاعل الشوارد في أي مادة كيميائية ، لا ما يفترض حصوله في ساحة عدم مطلق .. فما هي الأجزاء التي تفاعلت مع بعضها عندما كانت هذه الأجزاء وغيرها معدومة عدماً مطلقاً ؟

وإن قيل لك : بل إن هذا الوجود الكوني أزلي الوجود ، لم يُسبق يوماً ما بعدم مطلق ، أجابك المنطق والعقل الإنساني ، ولكننا ما زلنا نراه يتوالد بعضه من بعض ، وما زال الوجود الكوني يتبدّى لنا في صورة سلسلة طويلة من العلل والمعلولات المترابطة ، كل حلقة فيها معلول لما قبلها وعلة لما بعدها ، وبدهي أن كل حلقة من حلقات الوجود هذه إنما تستعير الفاعلية بما بعدها مما قبلها .

ويقول القانون العقلي الذي لا ريب فيه ولا خلاف ، إن سلسلة العلل غير الذاتية ، أي التي تستعير الفاعلية مما قبلها ، لا يمكن أن تمتد في ظلمات الماضي إلى ما لا نهاية . بل لا بدّ لها ، ما دامت موجودة وجوداً حقيقياً ، من مستند ذاتي تنبثق الفاعلية من جوهره وذاته ، ولا تنعكس إليه من غيره ، فإن قررنا أن هذا المستند الذاتي غير موجود ، فلا ريب أن سلسلة الموجودات المتلاحقة من العلل غير الذاتية غير موجودة أيضاً ، أرأيت إلى الأصفار المتراصفة التي نفترض أن كلاً منها يستعير القيمة العددية مما قبلها ، إن هذه القيمة لن تكون حقيقة إلا إن

كانت الأصفار مستندة في النهاية إلى رقم ذاتي تنبثق قيمته من داخله ، كالواحد فما فوقه مثلاً ، كذلك الأدوار المتساندة من بناء باسق ، لا يمكن الاطمئنان إلى رسوخ أي دور منها إلا بعد اليقين بأن سلسلة الأدوار كلها مستندة إلى ما يسميه المهندسون بالكتلة الذاتية الراسخة بنفسها في داخل الأرض .

إذن ، فلن يسلم لك أي تصور علمي أو عقلي سليم عن بنيان هذا الكون ، مفصولاً عن اليد التي أبدعته والقدرة التي أحكمته ، سواء افترضته قديماً لا أول له ، أو حادثاً انبثق عن ذاته .

وصاحب هذه اليد ووليّ هذه القدرة ، إنما هو الله عز وجل ومن أهم ما يمتاز به الله عز وجل عن مخلوقاته ، أن وجوده منبثق من ذاته وليس فيضاً من غيره ، وهذا معنى قول العلماء عنه : إنه واجب الوجود .

ومن ثم فلا يمكن للعقل أن يسأل : فمن هو الذي خلق هذا الإله بدوره ؟ ذلك لأنه سؤال غير منطقي ، إذ هو ينطوي على

افتراض تناقض مستحيل ، فإن من أخص معنى كون الله إلهاً ، أن وجوده من ذاته وأنه خالق غير مخلوق ، فافتراض أنه مخلوق مع ذلك يتناقض مع الإقرار بألوهيته وحاجة الكون إليه .

هذا بالإضافة إلى أننا إن افترضنا أن لهذا الإله خالقاً ، فلا بد من التوجه بالسؤال عمن خلق الخالق له ، وهكذا إلى ما لا نهاية ويعود التسلسل المستحيل عقلياً من جديد .

فإذا استقر لديك اليقين العقلي بأن هناك خالقاً لهذا الكون بكل ما فيه ومنظماً لهذا العالم الهادف المتناسق ، كان من الطبيعي أن تتوجه بأسئلتك عن ذاتك وقصة الرحلة الإنسانية في فجاج هذه الحياة ، إليه هو دون غيره .

ولكن كيف يمكن أن تتلقى الجواب ؟

إن سبيل وصول نجواك وأسئلتك إليه ، سبيل ميسرة لا إشكال فيها ولا غموض ، فطبيعي ومنطقي أن يعلم الله السر وأخفى ، وأن يسمع حديث مخلوقه ولو كان حديث همس أو خواطر نفس .

ولكن ما هو سبيل وصول حديثه وخطابه إليك ، وأنت لا تملك إلا قدراتك المحدودة ؟

هذا ما عنيتُه ، عندما قلت في أول هذا الفصل : إنك إن وصلت من اكتشاف حقيقة ربوبية الله لهذا الكون إلى يقين ، فلسوف تصطدم بعد ذلك بحدود لا قبل لك باختراقها ، مهما استعنت بعقلك ووعيك ، بل لا بدّ عندئذ من ضياء آخر يرفد العقل ويعينه .

هذا الضياء هو الوحي الذي لا بديل عنه ، ولا غنى عن الإنصات إليه ، إن أراد الإنسان أن يقف على حقيقة الأجوبة عن الأسئلة التي تجول في خاطره .

وسيحين الحديث عن هذا الوحي في الفصل القادم إن شاء الله .

☆ ☆ ☆

قد تقول : ولكن أكثر الناس موقنون بوجود الخالق ، دون أن يحلّ هذا اليقين شيئاً من المشكلة النفسية والفكرية التي

تحدثت عنها ، والتي يعاني منها فعلاً كثير من الناس ، لا سيما في المجتمعات الغربية .

فالإيمان بالله موجود لدى أكثر الناس في كل من ربوع الغرب الأوروبي والأمريكي ، ولكن المشكلة التي تحدثت عنها هي الأخرى موجودة تسير مع ذلك الإيمان جنباً إلى جنب .

والجواب أن الإيمان بأن لهذا الكون خالقاً ومدبراً حقيقة فطرية جبل عليها كل إنسان سويّ النفس والتفكير .. ومن ثم فقد صاحب هذا الإيمان المجتمعات الإنسانية منذ فجر وجودها .

غير أن ظروفاً وعوامل معيّنة اكتنفت هذا الإيمان ، فأفقدته ما كان حريّاً أن يوجد فيه من الفاعلية والتأثير ، وأحالته إلى أمر تقليدي ومظهر طقوسي ، بعيد عن سلطان العلم وقناعة العقل .

من هذه الظروف التعصب لموروثات البيئة أو القبيلة ، فكان ذلك عاملاً في الإعراض عما يقتضيه العقل إلى ما تحكم به العصبية ، فبمقتضى هذا العامل وجد الشرك وانتشرت عبادة

الأوثان ، وظهرت عبادة الكواكب والتوتم والحيوانات .. ولو أصغى أصحاب هذه الديانات إلى صوت العقل لتحرروا من أسر دياناتهم هذه ولعبدوا إلهاً واحداً لا شريك له ولا يشبهه شيء .

ومن هذه العوامل والظروف ، الوقوف في الإيمان بالخالق عند بداية إجمالية يكتنفها كثير من الريب والغموض . وهو شأن أكثر الغربيين الذين يكتفُون باليقين الإجمالي القائل : لا بدّ من وجود قوة خارقة أبدعت هذا الكون ، ثم إن أحدهم لا يزيد على هذا القرار أي إضافة بيانية أو تفصيلية ، ومن ثم لا يستشعر من وراء يقينه أو قراره هذا أي مسؤولية ترهقه أو تحركه .

ومن هذه العوامل والظروف ، الركون في تفسير الخالق عز وجل وفهم صفاته ، إلى تصورات خيالية لا يقرها العلم ولا تتفق مع أوضح قوانين العقل والمنطق ، وأكثر هذه التصورات مما نسجته المجامع الكنسية ، في ظروف غابرة ، فكان أن وقع كثير من الغربيين لا سيما المثقفون والعلماء منهم ، من جراء هذه العوامل ، بين خيارين اثنين :

أحدهما : الاستسلام لهذه التصورات من خلال طمأنينة نفسية بعيدة عن موقف العقل وحكمه ، ومما يعين على الجنوح إلى هذا الخيار الفطرة الإيمانية الكامنة في الذات الإنسانية أياً كانت وفي أي الظروف وجدت .

ثانيهما : التمرد على هذه التصورات من خلال الركون إلى العلم ومنهجه وأحكامه ؛ ومما يعين على اتخاذ هذا الخيار ما وصلت إليه الحضارة الغربية من الإنجازات العلمية التي اخترقت أسوار كثير من المستحيلات ، العرفية طبعاً ، والتي خيلت إلى كثير من الناس أن العلم بوسعه أن يصبح بديلاً عن الدين .

وأنت تنظر اليوم إلى الشارع الغربي ، أينما كان ، فتجده يفيض بأحد فريقين ، فريق يوصَفُ أفراده بالاعتقاديين ، وهم الذين آثروا تصوراتهم الدينية على منطق العلم ، بل تحرروا من عقولهم في سبيل الدين ، وفريق يوصَفُ أفراده بالعلميين ، وهم الذين آثروا مقتضى العلم على التصورات الدينية المناقضة له .

فهذه الظروف والعوامل ، في جملتها هي التي أحالت شعلة الإيمان بالله عز وجل إلى جذوة خامدة ، وجعلت مسألة الدين واليقين بوجود الصانع لهذا الكون ، في أحسن الظروف والأحوال مسألة هامشية ، لا يمتدّ لها أي سلطان على السلوك ونظام الحياة ، ومن ثم فإنها لا تقوى على الإجابة عن أي من الأسئلة المرهقة التي تفرض نفسها على الإنسان عموماً ، وعلى إنسان الحضارة الغربية خصوصاً .

غير أن الرجل الغربي ، يستأنس مع ذلك ، بالدين إجمالاً ، لما يشعر به في أعماق نفسه من تجاوب فكرة الإيمان بالله مع شيء فطري كامن في طوايا شعوره ، فهو يؤثره على العلم في كثير من الأحيان ، لأنه يسدّ في نفسه حاجة ماسّة ، لا يسدّها العلم .

إلاّ أن انفصال الحركة العقلية لديه عن هذا الشعور النفسي ، يجعله خاضعاً لشخصية مزدوجة ، إحداها تتحرك بقرار من اليقين العقلي وأحكام العلم ، والأخرى تتحرك بدافع من التطلع ، بل من الظمأ النفسي إلى حقائق الغيب وخفاياه ،

وإنما يستثنى من عموم هذا الواقع ، أولئك الذين نفضوا أيديهم وأفكارهم عن الدين جملة وتفصيلاً ، واتجهوا بكليتهم ـ أي نفسياً وعقلياً ـ إلى العلم والحياة العلمية .

وازدواج الشخصية بين العلم والدين المتعارضين ، مصدر إضافي للقلق النفسي الذي يبعث على الكآبة والاستيحاش من الحياة ، كما أن الاستغناء عن الدين بالعلم ، لا سيما في منظوره المادي المحدود ، مصدر أساسي كبير لهذا القلق ذاته .

إذن ، فإن هذا الإيمان التقليدي ـ إن وجد ـ لم يستطع ولا يستطيع أن يحلّ هذا اللغز في حياة ذويه ، فكيف بمن أعرضوا عن فكرة الإيمان بالخالق باسم العلم والانصياع لأحكامه .

من أجل هذا نقول : إن السبيل هو البحث في جذور هذهِ المكونات وأسباب نشأتها ، كما سبق أن أوضحنا ، ولكن بشرط أن يسبق ذلك تحرر كامل من العصبية للبيئة والمجتمع والتاريخ ، وتحرر كامل من التصورات والأخيلة التقليدية الموروثة التي

يعمد كثير من الناس فينسجون منها بنياناً لمعنى ديني متكامل ، ليس له من مصدر إلا الفكر الإنساني المجرد الذي لا يعتمد بدوره إلا على دعامة أساسية كبرى هي أصل الإيمان بالله عز وجل .

إن أي تأمل في وجود الصانع ودلائل وجوده ، لن يأتي بحصيلة علمية تقنع العقل وتطمئن إليها النفس ، مادام صاحب هذا التأمل قابعاً داخل مضيق من التأثر والتقيد بموروثاته البيئية أو تطلعاته الذرائعية ، أو مستسلماً لعاطفة إيمانية مجردة عن ضوابط المنطق والعلم .

لذا فإنني أدعو كل إنسان أدرك وجود لغز جاثم وراء هذا الكون ، ولاحقته من ذلك مشاعر الوحشة في الحياة أو التبرم بها آناً ، ومشاعر الرغبة في اكتشاف أسرارها الغامضة وعواقبها الخفية المتربصة آناً آخر ـ أدعوه إلى أن يتحرر أولاً من موروثاته البيئية والتقليدية ، ومن كل ما قد يقيد العقل ويأسر الفكر من رواسب الأعراف وحتى الديانات ، ثم يقبل إلى صفحة هذا الكون ، وهو يحمل مصباحاً واحداً لا ثاني له ولا معكر لضيائه ، ألا وهو مصباح المنطق والعقل ، ثم ليقرأ على ضوئه

سطور هذه المكونات ، فلسوف يمضي به هذا الضياء ليقف به على حقائق كامنة خلف هذه السطور . ولسوف يهديه هذا المصباح أخيراً إلى أرومة هذا الكون ومصدره الذاتي الذي انبثق الوجود منه .

إنه الله عز وجل !..

ولكنه ، فيما يهدي إليه هذا المصباح العقلاني الصافي ، ليس كوكباً يلتمع في السماء ، ولا حيواناً متميزاً يجوب فوق الأرض ، ولا إنساناً فريداً أوتي بسطة من القوة والبأس ، ولا تمثالاً صقله خيال فنان ، ولا شركة متعاونة من الآباء والأبناء ، أو الأصحاب والأقران .

وهو لن يكون ، فيما يهدي إليه هذا العقل الصافي ، ذا قرار جانح عن منهج العدالة والحق ، يحمّل واحداً من خيرة عباده أو أحبابه أخطاء القرون الخالية والأجيال اللاحقة ، ليجعل من آلامه وعصارة بؤسه المغتسل الوحيد لتخليص تلك الأمم من أخطائها .

بل هو الإله الصانع المبدع الذي يذعن لوجوده العقل ، ولا يحيط به الخيال ، وكيف يحيط المخلوق بخالقه أم كيف ينطوي الأصل داخل فرعه ؟!..

إنه الصانع الذي لا يحتاج إلى شيء ويحتاج إليه كل شيء ، وهو الذي مهما خطر أو تمثل في بالك فإنه بخلاف ذلك .

وهو الأحد الذي لا يتجزأ ، لأن كل جزء داخِلَ قوام الكلّ ضعيفٌ بذاته متقوٍّ بغيره ، وهو الواحد الذي لم تؤلفه شركة ولا تكوّن من لجنة ، لأن كل عضو في شركة أو لجنة ناقص بنفسه مستكمل بغيره ، وذلك شأن المخلوق المحتاج إلى غيره لا شأن الخالق المستقل بذاته .

وهو العادل الذي لا يحمّل بريئاً شيئاً من أوزار غيره ، فإن أراد أن يخلّص المخطئ من عواقب أخطائه ، فإن له من واسع صفحه وغفرانه ما يغنيه عن الاحتياج إلى من يحمّله أخطاء الآخرين .

إن الإيمان بوجود إله أبدع هذا الكون وأقامه على نظامه

الذي كان ولا يزال دائباً عليه ، متصفٍ بكل هذه الصفات ، قرارٌ منطقي ينسجم مع العقل الإنساني أياً كان صاحبه ، ويتفق مع قواعد العلم الثابتة الصحيحة ، سواء عنينا بالعلم معناه المعرفي العام : (Knowledg) أو معناه المادي الحديث الضيق : (Science) .

إنه لا يحوج الرجل (الإيماني) إلى أن يتجاهل عقله أو يتجاوز شيئاً من قناعاته العلمية ، في سبيل إيمانه ، كما لا يحوج الرجل (العلمي) إلى أن يتجاهل فطرته الإيمانية في سبيل أن يبقى منسجماً مع قناعاته العلمية التي يعتزّ بها .

غير أن المنطق العقلي ـ وقد سار بصاحبه حتى أوصله إلى هذا الحدّ من اليقين بكثير من خفايا الكون ، ووضعه أمام يد الله التي تقبض على هذا العالم من كل أنحائه ، وأطلعه على أبرز الصفات التي لا بدّ أن يمتاز بها هذا الإله ـ لا يستطيع أن يتجاوز بصاحبه هذا الحدّ في نطاق هذه الرحلة العلمية المتميزة .

إن الإنسان الذي هدي إلى هذه الحقيقة سيطمئن من

جانب ، ولكن أسئلة جديدة ذات أهمية كبرى لا بدّ أن تثور في كيانه من جانب آخر : ما هي مسؤوليتي تجاه هذا الإله ، وما هي طبيعة العلاقة التي تربطني به ، وما الموت الذي قضى به عليّ ، وما الذي سيعقبه ؟

غير أن المنطق العقلي ، وقد أوصل صاحبه إلى هذا الحد ، لا يستطيع أن يستقل وحده بالإجابة عن شيء من هذه الأسئلة ، إذ هي ليست مما يمكن أن يكتشفه العقل بذاته ، كمختلف حقائق الطبيعة وقوانين الكون والحياة ، وإنما هي من الغيوب العائدة إلى علم الله تعالى وإرادته الذاتية الخاصة به .

لا بدّ للعقل كي يجيب صاحبه عن هذه الأسئلة ، من أن يستعين بطاقة إضافية .. بنور آخر يتمثل في خبر وارد عن الله ذاته يجيب عن هذه الأسئلة وأمثالها ، ودور العقل هنا هو التعرف على هذا النور وتمحيصه ، لتبيّن ما إذا كان خبراً حقيقياً صادراً عن الله ، أم لغواً زائفاً ، تسرب من سبل وأوهام باطلة .

فما هو هذا النور ؟ وكيف تكون خطوات العقل في رصد

حقيقته ؟ وكيف تم التعاون بعد ذلك بينه وبين العقل للسير بالإنسان على هذا الدرب ، لإتمام أخطر وأقدس رحلة معرفية في حياته ؟.

جواب ذلك ، مفصلاً ، في الفصل التالي بتوفيق الله .

كيف ومن أين نستلهم وظيفة الإنسان

وقصة رحلته في الحياة ؟

ليس عسيراً على الإنسان الذي أدرك بمجرد عقلـه وجود الله عـز وجـل مع صفـاتـه التي لا بـدّ أن يتصف بها ، أن يـدرك بالوسيلة ذاتها عبوديته لله .

إذ إن العبودية تعني أقصى حدود المملوكية ، وهي من أبرز مستلزمات ربوبية الله تعالى ، فمن أدرك ربوبية الله فقـد أدرك باللزوم البين عبوديته لهذا الإله ، ومن أدرك عبوديته ومملوكيته المطلقـة أدرك بلا ريب ألوهيـة الله عز وجـل . وهـذا هـو معنى اللزوم البين بين هذين الطرفين .

ولكن ما الذي يطلبه مني إلّهي هـذا الـذي عرفتـه وأيقنت بوجوده وربـوبيتـه ؟ ومـاذا عسـاه أن يفعـل بي لـو أطعتـه فيما

يطلبه مني أو خالفته فيـه ؟ ومـا قصـة رحلتي في فجـاج الحيـاة وما النهاية ؟

هذا ما لا يمكن أن يستقل بإدراكه العقل .

ذلك لأن هذه الأشياء منوطة بإرادة مستقلة عن ذاتك هي إرادة الله عز وجل ، فهي ليست عائدة إلى مشاعرك أو رغباتك الخاصة بـك ، كما أنها ليست ظـاهرة من ظواهر الكون أو سننه التي أمـامـك . فمن أين يسري إدراكـك العقلي إليها ليقتنصهـا فيكتشفها ؟

وتلـك هي نقطـة الضعف التي انـزلـق إليهـا كثير من الفلاسفة قديماً وحديثاً : أوغلوا في السعي إلى فهم مجاهل الكون وجذوره ، وإلى إدراك عواملـه ومحركاتـه ، فلما دلهم ذلـك على وجود الله عز وجـل وفـاعليتـه المطلقـة في الكـون ، طمعـوا أن يصلوا بالوسيلة ذاتها ـ وسيلة العقل المجرد ـ إلى المزيـد ، فبحثوا في ظلمـات المـاضي السحيق ، وحـاولـوا أن يعلمـوا كل شيء عن الروح والموت والوجود ، وعن النشأة الثانية . ولكن العقل تعثر

في السير معهم في هذه الفجاج ، ولم يعد إليهم بأيٍّ من الرؤى الصافية عن هذه المشكلات ، كما كان شأنه معهم في المسائل الكونية والفكرية الأخرى .

بل كان شأنه معهم كشأن الرائي (التلفزيون) عندما تكرهه على التقاط صور بعيدة دون استعانة بما هو ضروري من أجهزة تقوية ، إنه لا يزيد على أن يضع أمامك صوراً وأشباحاً مهزوزة لا تدلّ على شيء .

وهنا ندرك حقيقة منطقية كان ينبغي أن لا تخفى على أولئك الفلاسفة ، ولكنها تظل ، ويا للأسف ، خفية إلى اليوم ، حتى بالنسبة إلى كثير من العلماء والفلاسفة في هذا العصر .

وبوسعنا أن نوجز هنا بيان هذه الحقيقة المنطقية الهامة في بضعة أسطر ، انسجاماً مع طبيعة هذه السلسلة التي ينبغي أن تنضبط بحوثها بالاستيعاب مع التبسيط والإيجاز .

لا شك أن العقل هو الأداة التي لا بدّ منها لإدراك كل

مجهول وخافية ، ولكن المجهول الذي نريد أن ندركه أحد شيئين :

إذ هو إما أن يكون من المحسوسات الخاضعة لمنهج التجربة والمشاهدة ، أو يكون من الغيبيات التي لا تخضع لهذا المنهج ، أي لا يمكن أن تقع تحت سلطان أيّ من الحواس التي يتمتع بها الإنسان ، كالمجهولات الغائبة في تلافيف الماضي السحيق ، أو الآتي البعيد ، دون أن يكون بينك وبينها أي جسور من الآثار بالنسبة للمجاهيل الماضية ، أو المقدّمات بالنسبة للمجاهيل المقبلة الآتية .

وبالنسبة لكلا هذين النوعين ، فإن العقل لا يقوى وحده على اجتذاب الحقيقة وإدراكها سليمة صافية من الريب .

أما الأشياء المادية الخاضعة للحس ، فلا بدّ فيها مع العقل من الاستعانة بالتجربة والمشاهدة . العقل هو الأداة الباحثة والمنقبة ، والتجربة الحسية هي مقياس الدقة في الفهم وميزان الصواب والخطأ فيه . ومهما أوغل العقل في البحث والتنقيب ،

واقتنص النتائج وعاد بالأحكام ، فلسوف تبقى الريبة حائمة حولها ، ولسوف يظل احتمال الخطأ والصواب وارداً في حقها ، حتى يدعم الباحث أحكامه ونتائجه بالتجربة الحسية المؤيدة .

واحتياج العقل في فهم أشياء المادة إلى مؤيدات التجربة الحسية ، كان ولا يزال محلّ اتفاق عند سائر الباحثين والعلماء ، ولا نحسب أن أي خلاف أو جدل يمكن أن يتسرب إليه .

وأما القضايا الغيبية التي لا تخضع لأي تجربة أو حس ، فلا شك أنها هي الأخرى تحتاج ـ لمعرفتها ـ إلى سند آخر مع العقل يرفده ويدعمه ، بل القضايا الغيبية أحوج في طبيعتها إلى هذا السند الإضافي ، من الأشياء المادية الخاضعة للحس .

ولكن ما هو هذا السند الإضافي ؟ إن التجربة والمشاهدة غير واردين في هذه الحال ، كما هو بدهي وواضح ، إذن فما هو البرهان الإضافي الذي لا بدّ أن يركن إليه العقل ؟

إن هذا البرهان يتمثل في الخبر الصادق !..

ولحسن الحظ أن الذي يختار هذا البرهان ويقدم المؤيدات

الكافية التي تثبت ضرورته ، وتؤكد صدق الاعتماد عليه ، هو العقل ذاته .

فلنصغِ إلى ما يقرره العقل ، في احتياجه ، لإدراك القضايا الغيبية ، على وجهها الصحيح ، إلى برهان الخبر الصادق .

لقد سبق أن بحثنا في جذور هذه المكونات ، فوقفنا ، بتفكير عقلي ، على أن لهذه المكونات موجداً وصانعاً هو الله عز وجل ، واهتدينا بقرار من العقل إلى الصفات الأساسية التي لا بدّ أن يتميز بها هذا الإله الخالق عن مخلوقاته .

فإذا كنا الآن نستنهض العقل لمعرفة ما يراد بنا ومنا فوق هذه الأرض ، ولمعرفة حقيقة الموت والخفايا التي تكمن وراءه ومصيرنا الذي سنؤول إليه آنذاك ، فمعنى ذلك أننا نتوجه بعقولنا إلى هذا الصانع والخالق الأوحد ، ليطلعنا على قراراته التي اتخذها عن خفايا رحلتنا هذه .

إن الذي يتساءل عن البلدة التي سيتوجه إليها القطار الذي يركبه ، وعن المحطة الأخيرة التي تنتهي عندها رحلته ،

لا بدّ أن يتوجه بتساؤله ـ بطبيعة الحال ـ إلى القائد الذي يسوق القطار .

كل ما في الأمر أن عليه أن يعلم ، بأنه يركب قطاراً ، وأن القطار لا ينطلق ذاتياً بشكل عشوائي ، وإنما يسوقه قائد ، طبق خطة منظمة وهدف مرسوم .

ونحن ، لحسن الحظ ، سبق أن عرفنا وأيقنّا أن قطار هذه الحياة لا ينطلق بشكل عشوائي أو يتحرك بدافع ذاتي ، وإنما هو رهن بقيادة فاطرٍ عليم حكيم . إذن فمردّ سائر الخفايا الغيبية التي ترهق فكر الإنسان ، إلى علم من بيده قيادة رحلة الحياة وحركة هذا الكون كله .

ولكن كيف السبيل إلى أن يبلغنا منه هذا الخبر الذي نتطلع إليه ؟ بل ما السبيل إلى معرفة أن هذا الخبر ـ بعد افتراض وصوله إلينا ـ خبر صادر منه هو ، لم يتقوّله عليه أحد ؟ إن المشكلة أن هذا الإله الذي إليه مردّ هذه الحقائق كلها ، لا تدركه الأبصار ، ولا يخضع وجوده لسلطان شيء من

حواسنا ، وهذا الأمر بحد ذاته شيء متفق مع مقتضى العقل ، فإن مبدع الأبصار والحواس حاشاه أن يعود فيصبح خاضعاً لسلطانها محصوراً في نطاقها .

أجل ، لا إشكال في هذه الحقيقة ، ولكن الإشكال يتمثل في معرفة الكيفية أو السبيل الذي به ندرك أو نقتنص الخبر الذي يمكن أن يبلغنا عن هذا الإله ، وإذا وصلنا خبر ما قيل لنا إنه وارد من عند الله عز وجل ، فمن لنا بأن نعلم بأنه صادر منه فعلاً لم يتقوله عليه إنس ولا جن ؟..

والجواب أن حكمة الله تعالى ـ وقد علمنا أنه عز وجل حكيم ـ أجلّ من أن تتركنا في متاهة من أمرنا بصدد هذه الحقيقة البالغة الأهمية في حياتنا ، إن هذه الحقيقة يدركها العقل جيداً ، وقد صدّقها الواقع التاريخي .

فما منا من أحدٍ إلا وقد سمع بالرسل والأنبياء ، وما منا من أحد إلا وقد علم أنهم رجال اختارهم الله ليبلغوا عنه أممهم وأقوامهم المهامّ التي خلقوا لأدائها في هذه الحياة ، وليطلعوهم

على المبدأ والمنتهى في قصة حياتهم ، وعلى المنهج الأمثل في التعامل مع الكون والأشياء المسخرة لهم .

وما منا من أحد إلاّ وقد علم أو سمع أن الطريقة التي أبلغهم الله بها هذه الأخبار والتعليمات ، هي ما سمّي بالوحي .

وعلى الرغم من أن المعنى المراد بالوحي في أصل اللغة ، هو الإلهام السريع الذي يتلقاه العقل دون مقدمات من الجهد والفكر ، إلاّ أن المعنى المراد بالوحي الذي تمتع به الرسل والأنبياء ، هو الأخبار والتعليمات التي كانوا يتلقونها بواسطة (جبريل) : واحدٍ من ملائكة الله المقربين ، جعله الله سفيراً منه إليهم ، يبلغهم عن طريقه ما ينبغي أن يعلموه من الأحداث ، وما يجب أن ينضبطوا به من الأحكام ، ليُعلم كل منهم بذلك قومه الذي أرسل إليهم .

وبقطع النظر عن الغموض الذي يحيط بهؤلاء الرسل ، من حيث العدد الكلّي لهم ، ومن حيث الكتب التي أوحي إليهم بها .. وبقطع النظر عما هو معلوم من التحريف والتغيير اللذين

تسربا فيما بعد إلى كثير من التعاليم ، بل إلى الكتب ، التي تنزلت على كثير منهم ، فإن هناك حقيقة ثابتة لا مجال لارتياب العقل فيها لدى شيء من التأمل ، هي أن وجود هؤلاء الرسل والأنبياء في تاريخ البشرية ، في الجملة ، أمر يقيني ثابت ، وأن التعاليم الإخبارية التي تنزلت عليهم فأبلغوها أقوامهم عن الله والكون ومصير الإنسان ، تعاليم واحدة لم يقع فيما بينها أي تشاكس أو تناقض قط ، فكلهم تحدثوا عن وجود الله واحداً لا شريك له ، منزهاً عن أي شبيه وعن أي صفة من صفات النقص ، وكلهم أخبروا عن النشأة التي ستكون بعد الموت ، وعن أن الإنسان مجزيّ بأعماله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وكلهم عرَّفوا بالإنسان ونشأته وأصله الذي تكاثر منه ، من خلال بيانات أخبروا بها أقوامهم دون أن يبدوا فيما بينها أي تناقض أو تخالف .

وأقول : لا يمكن للعقل أن يرتاب - لدى شيء من التأمل - في وحدة ما أخبر به هؤلاء الرسل والأنبياء أقوامهم ، من هذه الحقائق والمعلومات كلها ، لأننا إذا انطلقنا من اليقين

بأنهم كانوا رسلاً وأنبياء حقاً ، وأنهم إنما كانوا يتلقون معلوماتهم من المَلَك جبريل عليه السلام ، أمين الله في سمائه ، فلا بدّ ـ وهم أمناء الله في أرضه ـ أن تكون تلك الأخبار الإعلامية منسجمة متحدة ، ولا يعقل أن تجد بينها أي تناقض ، إذ مردّ التناقض ، لو فرض وجوده ، في هذه الحال ، إلى إخبار الله عز وجل لعباده ، فهل يقبل العقل بعد أن آمن بالله وحكمته وباهر صفاته ، أن يخبر كل طائفة من عباده بنقيض ما يخبر به الطائفة الأخرى ، كأن يبلغ بعضهم بأنه ـ أي بأن الله عز وجل ـ واحد لا شريك له ، ويبلغ آخرين نقيض ذلك ، أو كأن يؤكد لبعضهم بأنه لم يلد ولم يولد بينما يؤكد لآخرين بأنه قد أنجب ابناً له ، وأنه عيسى أو العزير ؟

إن هذه الأسئلة تفرض نفسها اليوم على إنسان الحضارة الغربية ولقد انتهى كثير منهم إلى القرار التالي :

لئن صدق الرسل والأنبياء فيما أبلغوه أقوامهم من هذه الأنباء المتناقضة ، فالكذب كامن إذن في مصدر الخبر ، وهو الله

عز وجل !!.. ولا شك أن مآل هذا القرار هو الإلحاد الذي لا بديل عنه .

ولكن كما أن العقل يرفض هذا التصور لأول لحظة رفضاً تاماً ، فإنه كذلك يرفض تصوّر كذب الرسل والأنبياء لأول لحظة أيضاً .

إذن ـ وقد بلغتنا أخبار متناقضة من هذا القبيل ـ فالخلط إنما جرى من الناس على ألسنة الرسل والأنبياء ، لا من الأنبياء أنفسهم .

والغربيون ، وقد درسوا تاريخ الكنيسة وتطور المجامع الكنسية ، ومؤتمر (نيقيه) ودور بولس الرسول (شاؤول) اليهودي في تطوير المسيحية . ودرسوا مواقف اليهود من أنبيائهم وما طرأ على (العهد القديم) ، يعلمون مدى التحريف والتبديل والابتداعات التي نسبت إلى كثير من الأنبياء أو أدخلت على الوحي الإلهي الذي تنزل عليهم ، ومن هنا آل أمرهم إلى الاستهانة بالدين من حيث هو .

ومن هنا ندرك مدى فداحة الخطأ الكامن في مقولة : (الأديان السماوية) فإن هذه الكلمة لو أخذت مأخذ الجد والصدق ، لكانت تعني أن الله عز وجل أَبْلَغَ كل فئة من عباده معلومات عن ذاته وعن الكون مناقضة للمعلومات التي أبلغها للفئة الأخرى ، ولا يمكن أن يفسر ذلك عندئذ إلاّ بالعبث أو الكذب من الله عز وجل على عباده .

وتأويلنا الوحيد لحال من ينادي بهذه المقولة (الأديان السماوية) أنهم يرددونه شعاراً وهمياً أو (رومانسياً) ، ليس له أي مكانة من مركز الجدّ واليقين في أفئدتهم أو عقولهم ، وهو موقفهم من الدين كله جملة وتفصيلاً .

غير أن اتخاذ هذا الموقف يعود بنا إلى المشكلة ذاتها التي بدأنا بحثنا هذا في تصويرها ، وبيان خطورتها على النفس الإنسانية وعلى المجتمع الإنساني .

وقد علمنا من خلال السعي إلى حلّ هذه المشكلة أن الله عز وجل موجود فعلاً ، وأنه ليس وهماً من الأوهام ولا أسطورة

كتلك الأساطير اليونانية المرسومة في خواطر اليونانيين ومن سار سيرهم ونسج على منوالهم . ولذا فلا بدّ أن يكون متصفاً بكل صفات الكمال منزهاً عن سائر صفات النقصان .

من هنا كان قرار العقل الذي لا مرية فيه ولا بديل عنه ، أن الدين الحق الذي خاطب الله به عباده ، والذي يتكون أساسه من جملة إخبارات وأنباء عن الله عز وجل وعن الكون والإنسان ومصيره ، أعلمه الله ـ أي أعلم الإنسان ـ بها ليستيقنها ويدين بها ، ويبني سلوكه على أساسها ؛ هذا هو الدين الحق واحد لا ثاني له منذ بدء الخليقة الإنسانية إلى اليوم .

ومن ثم فقد كان لا بد من تصحيح تلك المقولة الخاطئة ومعرفة أن هنالك ديناً سماوياً واحداً ، لا أدياناً سماوية متعددة متشاكسة .

ونقول : الدين السماوي الحق ، احترازاً عن الأديان الوضعية التي ابتدعها الناس لأنفسهم في غابر الأزمان . فهي لا تعدو أن تكون حصاد أخيلة وتصورات أو تأثرات اجتماعية

وفكرية متخلفة ، أخذت مبرراتها النفسية من واقع الفطرة الإيمانية العميقة الكامنة لدى كل إنسان سويّ الشعور والتفكير .

ولا إشكال في أن تتلاقى الفطرة الإيمانية السليمة مع النوازع الاجتماعية والفكرية المتخلفة على أوهام دينية باطلة ، إذ الأمر في هذا أشبه ما يكون بتلاقي الغريزة الإنسانية التي تدفعه ، أي الإنسان ، إلى البحث عن الطعام والشراب ، مع التخلف الفكري والاجتماعي لدى بعض الناس ، ليندفعوا بموجب ذلك إلى أكل أوراق الشجر أو البشيع من الطعام ، فالسائق الأول فطري سليم والاختيار الذي جاء نتيجته ثمرة جهل وتخلف .

وإذا كان المراد بالدين ، في حديث كثير من علماء الاجتماع ، هذه الأوهام الوضعية ، فنحن نشاركهم القول بأن الدين ظاهرة اجتماعية ، أي نابعة من فكر الإنسان وواقعه ، وليست هابطة إليه من السماء وخالقه .

☆ ☆ ☆

وبعد ، فإنك لتلاحظ أننا إنما توصلنا إلى هذه الحقائق ، عن طريق المحاكمة العقلية المجردة ، انطلاقاً من اليقين الكلي الذي سبق أن أحرزناه ، وهو اليقين بوجود الله عز وجل ، واليقين بأنه لا بد أن يكون متصفاً بكل صفات الكمال ، منزهاً عن سائر صفات النقصان . أجل ، فإن إيماننا بالله يستلزم ، من خلال قرار منطقي جازم ، يقيننا بهذه الحقائق كلها .

غير أن بوسعنا أن نجد هذه الحقائق معلناً عنها ، في الكتاب السماوي الذي تنزل على آخر الرسل والأنبياء ، وهو محمد عليه الصلاة والسلام ، الذي يمتاز عن سائر من سبقه من المرسلين ، بأنه أرسل لا إلى قومه الذين ظهر فيهم فقط ، بل إلى الناس جميعاً . ونظراً إلى أنه خاتم الرسل والأنبياء ، كما أعلن هو عن نفسه ، بل كما أكده الكتاب الذي تنزل عليه ، فهو مرسل أيضاً إلى سائر الأجيال التي ستتوالى من بعده إلى قيام الساعة .

إننا عندما نصغي إلى هذا الكتاب : (القرآن) الذي تنزل على محمد ﷺ خاتم الرسل والأنبياء ، نجده يعلن عن هذه الحقائق بصراحة ووضوح .

ففي نطاق التأكيد بأن الله لم يخلق هذا العالم الدائب على هذا النظام الدقيق عبثاً ، بدون هدف ولا حكمة ، يخاطب القرآن الناس قائلاً :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِيْنَ ، لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهوَاً لاَتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِيْنَ ﴾ [الأنبياء : ١٦/٢١ ـ ١٧] .

وبصدد تنبيه الإنسان إلى أنه هو بذاته لم يُخْلَقْ ليمارس حياة عشوائية عابثة ، تبدأ بالولادة وتنتهي عند الموت ، يخاطبه القرآن فيقول : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ، فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الكَرِيْمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٥/٢٣ ـ ١١٦] .

وعن جانب هام من قصة خلق الإنسان ، وما هو مقبل عليه بعد الموت ، يقول :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِيْنٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطفَةً فِيْ قَرَارٍ مَكِيْنٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ

مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً ، فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِيْنَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٢/٢٣ ـ ١٦] .

ويؤكد القرآن هذه الحقيقة أكثر من مرة ، فيقول :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِيْ وُكِّلَ بِكُمْ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُوْنَ ﴾ [السجدة : ١١/٣٢] .

ويقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُوْرَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ . وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُوْرِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥/٣] .

أما عن المهمة التي كلّف الله الإنسان بالنهوض بها ، فتتلخص في ممارسة عبوديته الضارعة لله عز وجل ، من خلال القيام بعمارة الأرض بمعناها الحضاري العام ، ومن خلال إقامة المجتمع الإنساني المتآلف الواحد ، إنه يقول في بيان ذلك :

- ﴿ هُوَ ﴾ أي الله عز وجل ﴿ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيْهَا ﴾ [هود : ٦١/١١] .

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوْباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣/٤٩] .

- ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لَيَعْبُدُوْنِ .. ﴾ [الذاريات : ٥٦/٥١] .

أما عن المنهج أو النظام الذي ينبغي أن يتبعه الإنسان في عمارة الأرض وبناء المجتمع الإنساني وممارسة العبودية لله ، فهو يلفت النظر إلى شرعة متكاملة أنزلها على الناس ، فما عليهم إلا أن يتخذوا منها دستورهم ونبراسهم على الطريق ، ويهددهم بالتشرذم والشقاء إن لم يتبنوا شرعته وتعاليمه هذه . إنه يقول لهم فيما يقول :

- ﴿ ..قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللهِ نُوْرٌ وَكِتَابٌ مُبِيْنٌ ، يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيْهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ ﴾ [المائدة : ١٥/٥ ـ ١٦] .

- ﴿ ..فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّيْ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِيْ فَإِنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْراً ، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ [طه : ١٢٣/٢٠ ـ ١٢٦] .

ويعود فيؤكد أن رحلة الإنسان في فجاج هذه الحياة لا بدّ أن تنتهي بلقاء الله ووقفة بين يديه ، وسيحاسبه على كل ما قد صدر منه ، ولا بدّ أن يثيب المحسن ويعاقب المسيء خلال حياة ثانية جسمية وروحية سيحياها دون نهاية ، فهو يقول له :

- ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيْهِ . فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِيْنِهِ ﴾ إن كان من المحسنين في الدنيا ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيْراً وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوْراً . وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ أي كان من المسيئين

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوْراً وَيَصْلَى سَعِيْراً ﴾ [الانشقاق : ٦/٨٤ ـ ١١] .

وينبئ الله عباده من خلال القرآن ، أن التعاليم والإرشادات التي أوحى الله بها إلى رسله وأنبيائه الذين خلوا من قبل ، تصب في مبادئ وحقائق واحدة ، لم تتشاكس ولم يختلف بعضها عن بعض على مرّ الزمن . فيقول :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّيْنِ مَا وَصَّى بِهِ نُوْحاً وَالَّذِيْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيْمَ وَمُوْسَى وَعِيْسَى ، أَنْ أَقِيْمُوْا الدِّيْنَ وَلا تَتَفَرَّقُوْا فِيْهِ ﴾ [الشورى : ١٣/٤٢] .

ويؤكد أن الخلافات التي نشأت فأظهرت هذا الدين الواحد بمظهر الأديان المختلفة ، إنما هي من آثار عصبيات تاريخية جعلت من الدين الواحد أدياناً متناقضة ، فيقول :

﴿ إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ . وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ .. ﴾ [آل عمران : ١٩/٣] .

إذن ، فإن سلسلة الحقائق التي كنا قد استنتجناها إجمالاً عن طريق الفكر والعقل ، بعد أن اهتدينا إلى وجود الإله الواحد صانع هذا الكون ، هي ذاتها التي يؤكدها الوحي الإلهي من خلال القرآن ، الذي هو آخر وحي متلوّ خاطب الله عز وجل به عباده ، بوساطة خاتم الرسل والأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو ـ كما نعلم جميعاً ـ أرسل إلى الناس جميعاً وإلى الأجيال كلها إلى أن تقوم الساعة .

وعلى الرغم من اتفاق هذا الوحي الإلهي ، مع استنتاجاتنا العقلية التي اقتضاها يقيننا العلمي والعقلي بوجود الله عز وجل ، فإن كثيراً من الباحثين والمثقفين يظلون يستشكلون كلمة (الوحي) ويتساءلون عما إذا كان لهذه الكلمة من موقع معتدّ به في مناهج العلم ومصطلحاته .

ويزداد شكوك هؤلاء المثقفين في قيمة (الوحي) كلما كانوا أكثر دنواً إلى الفلسفة أو أكثر تأثراً برجالها .

وأنا أعلم أن في عشاق الفلسفة وروادها ، من يؤثرون شكوكهم واضطراباتهم الفكرية ، في شؤون ما وراء الطبيعة من

عالم الغيبيات ، على ما قد يحققه لهم الإصغاء إلى الوحي الإلهي من اليقين والطمأنينة في تلك الشؤون . بل لكأنهم يرون في شكوك الفلاسفة هذه معاناة مقدسة ينبغي الركون إليها !..

غير أن الإنسان العاقل ، لا يجد مفراً أو ملاذاً له ، من حيرته أمام هذه المفارقة ، إلا باللجوء إلى مقاييس العلم وقواعده .

فالشك لا يمكن أن يكون بغية إنسان عاقل ، وإنما هو مرحلة لا بدّ من اجتيازها على طريق البحث عن اليقين . غير أن الطمأنينة الفكرية أيضاً ليست دائماً ثمرة قرار علمي أو ميزان منطقي ، بل قد تكون في كثير من الأحيان نتيجة خداع فكري أو هوى نفسي .

إذن ، كل ما هو مطلوب منا ، في هذه المرحلة ، أنْ نتبين موقع (الوحي) من العلم وعلاقة كل منهما بالآخر .

وأياً كانت النتيجة فالمطلوبُ منا أن نزن الوحي بميزان العلم لا العكس .

الوحي .. والمنهج العلمي

من المعلوم أن البصر مهما كان حاداً ، لا يمكن الرؤية به إلا مع وجود نور متكافئ ، يصاحب عملية النظر والاستبصار . فالذي يسير في نفق مظلم لا يرى شيئاً مهما حدّق بعينيه .

وكذلكم الحال نفسه ، عندما يكون النور غير متكافئ مع الطاقة البصرية ، فهي أيضاً لا تتبيّن شيئاً مهما تجلت الأنوار ساطعة مبهرة أمامها .

ترى لماذا نعجز عن إدراك الحقيقة ذاتها ، عندما نحاول الرؤية ببصائرنا لا بأبصارنا ، مع أن القانون العلمي في كلتا الحالتين واحد .

على الرغم من أن العقل هو الطاقة المتميزة التي فُضِّل بها الإنسان على كثير مما خلق الله ، ومن حقه أن يتباهى بها - فإن مما هو معلوم وثابت أنه هو الآخر يحتاج لأداء مهمته إلى نور متكافئ .

والنور المتكافئ هنا يختلف باختلاف المعضلة التي يُوجَّهُ العقل إليها لإدراكها وتحليلها .

فإن كانت داخلة في عالم المادة ، أي خاضعة لشيء من الحواس ، فإن النور الذي لا بدّ من الاستعانة به هو التجربة والمشاهدة . ومهما أدلى العقل بقرارات نظرية ، فإنها تظل معلقة ، أي غير مبرم بشأنها ، حتى يؤيدها الحس العملي ، وهذا يقين علمي لا يختص به أئمة الفلسفة الوضعية ، بل هو قرار علمي لا يسع عاقلاً أن يماري فيه . والدستور العلمي لهذه الحقيقة أن أحكام العقل على أشياء المادة متفرعة ومنعكسة عن واقعها التطبيقي وليس العكس . وإنما الذي يرصد هذا الواقع كما هو ، المشاهدة الحسية أو بتعبير أكثر شمولاً : التجربة الحسية . وقد تتدخل الوسائل والأجهزة المستحدثة في الأمر ، ولكن دورها لا يزيد على دعم هذه التجربة ورصد دقائقها التي قد تخفى على الحسّ المجرد ..

أما إن كانت المعضلة التي يراد فهمها وتحليلها ، خارجة عن نطاق المادة ، بحيث لا تخضع لأي من الحواس الإنسانية ،

وهي ما يسمونه بما وراء الطبيعة أو الغيبيات ، فإن النور الذي لا بدّ للعقل أن يستعين به في هذه الحال ، هو الخبر الصادق ، الصادق في طريقه والصادق في مصدره . فإن لم يتوفر هذا الخبر ، فليس بعد ذلك أي بديل يمكن للعقل أن يستعيض به .

مثال هذا النوع من المعضلات ، الماضي السحيق الذي انبتّت صلة ما بينك وبينه ، فلا تمتد إليك منه أي بقايا أو آثار . أو المستقبل البعيد الذي لا تتراءى أمام حواسّك أيٌّ من مقدماته وإرهاصاته ، كأحداث ما بعد الموت ، واحتمالات النشأة الثانية ، وما قد يتبعها من طروح وافتراضات .

إنّ الإنسان أمام هذه المغيبات ، لا يملك إلا أحد موقفين :

أحدهما : أن يعرض عن التأمل فيها ، فلا يؤرق لنفسه ، في سبيلها ، فكراً ، ولا يلاحق عقله بالوصول منها إلى أي قرار . وذلك هو اختيار أكثر من جنحوا إلى سبيل الإلحاد ، فإنهم آثروا تجاهل هذه القضايا والعمل على اطّراحها من الفكر ولو بشيء من التكلف ، لَمّا حيل بينهم وبين بلوغ يقين علمي بشأنها يبعث على القناعة والاطمئنان .

ثانيهما : أن تتغلب عليه نوازع الفكر والنظر ، فلا يقوى على صرفها عن البحث في هذه المغيبات ، مهما كانت السبل إليها مسدودة أو مستوعرة .

لا غنى للإنسان ، في هذه الحالة الثانية ، من أن يبدأ نظره ومعاناته الفكرية بالبحث في مدى احتمال وجود صانع لهذا الكون . بل إن العقل سيضطره إلى الابتداء في البحث من هذه النقطة ، ما دام أنه جادّ في أن يعلم شيئاً عن ظلمات الغيوب المحيطة به .

وقد سبق أن أصغينا إلى قرار العقل بأن قيام هذه المكونات على هذا النسق المشاهد ، لا يمكن أن يستقر ويستقيم إلا استناداً إلى وجود صانع حكيم أحكم صنعه وتدبيره . كما علمنا آنذاك بأن هذا الصانع لا بدّ أن يكون متصفاً بصفات متميزة عن سائر المخلوقات ، وبالجملة : لا بدّ أنْ يكون موصوفاً بكل صفات الكمال منزهاً عن جميع صفات النقصان .

فإذا انتهينا إلى هذا القرار واستقر في مركز اليقين العقلي

لدينا ، فإلى من نرجع إذن في الاستعلام عن حقائق تلك المغيبات ؟

كلنا يعلم ـ بحكم البداهة العقلية ـ أن المرجع في معرفة ذلك إنما هو الصانع الذي استقل بإبداع هذا الكون . ذلك لأن ما نعدّه غيوباً غامضة بالنسبة إلينا ، قرارات مرئية ومبرمة بالنسبة إليه .

والأمر في هذا لا يختلف عنه بالنسبة إلى أيّ جهاز استقرّ في علمنا أن مصنعاً يعود إلى شركة معينة قد صممته وأبدعته . وليس فينا من يرتاب في أن المرجع في معرفة سائر الخفايا الكامنة والغائبة وراء المظهر المادّي والمرئي لهذا الجهاز ، إنما هو البيان الصادر من الشركة التي أنتجته ، فهو المعتمد في معرفة الكيفية المفضلة في استعماله والطريقة التي ينبغي أن تُتّبع في صيانته ، والآثار المفيدة أو الضارة التي قد تنجم عنه .

وسواء اعتبرنا الاعتماد على هذا البيان وإخباراته ، جنوحاً عن المنهج العلمي القائم على التجربة والمشاهدة ، فتحفظنا في

تسمية قناعاتنا التي أورثنا إياها هذا البيان (علماً) ، أو اعتبرناه طريقة أصيلة من الطرق الموصلة إلى (العلم) فلم نتحفظ في إطلاق هذا الاسم ، أو آثرنا التفنّن في العبارة ، كما يروق للبعض ، فاصطلحنا على تسميته معرفة (Knowledg) بدلاً من تسميته علماً (Science) ، فإننا ندرك على كل حال بأن اليقين العقلي الجازم ، إنما يتبع في هذه القضية وأمثالها ما تضمنه بيان الشركة أو المصنع ، بعد التأكد من أنه بيانها فعلاً وليس مزيفاً باسمها من جهة أخرى .

ولست أدري إلى الآن أن (العلم) بمعناه التجريبي الخاص ، يمكن أن يقدم إلى العقل الإنساني أكثر من هذا اليقين المبرم .

فلئن جاء ـ مع ذلك ـ من لا يرضى أن يسمي هذا اليقين العقلي علماً ، فلا شك أن رفضه لن يتسبب في زعزعة شيء من هذا اليقين ، وإلاَّ فما أيسر أن يتحول (العلم) الذي لا شك فيه إلى (جهالة) لا ريب فيها ، عندما يأتي من يطيب له أن يعكس الأسماء والمصطلحات .

وما دمنا عرّجنا بهذه المناسبة إلى الحديث عن الاصطلاح والمصطلحات ، فلعل من المفيد أن نذكر بأن الغرب اليوم بصدد إعادة النظر في المضمون الاصطلاحي الضيق لكلمة (العلم) هذه .

لقد كانت كلمة العلم هذه ، تعني ـ منذ عصر النهضة الأوربية إلى منتصف هذا القرن ـ النتائج التجريبية التي تم رصد الإنسان لها في عالم المادة الماثلة للعيان ؛ أي إنه كان إلى عهد قريب جداً تجربة مادية أكثر من أن يكون حركة عقلية . بل كان مقطوع الصلة عن كل من الماضي والمستقبل ، والحاضر الغائب عن الحواس ، ومن ثم فقد كان مقطوع الصلة بالدين من حيث هو ، أياً كان نوعه ومصدره .

ولقد رسخّ جدران هذا السجن الضيق العجيب للعلم ، انبهارُ الغرب بالعلوم المادية التي نبغ فيها كثير من العلماء ، كالفلك والفيزياء والتشريح ، وتمثل هذا الانبهار الخادع ، بأوضح مظاهره ، في أفكار ثلاثة من العلماء شاءت الأقدار أن يوجدوا في عصر واحد ، ـ في القرن السابع عشر ـ هم : غاليليه ، وديكارت ، ونيوتن .

ولا أبالغ إن قلت : إن هؤلاء الثلاثة هم الذين أحكموا رتاج هذا السجن ، وغلّقوا أبوابه بأقفال لا تحصى ، وفرضوا من ذلك حدوداً ضيقة خانقة على العلم .

إذ كانوا يرون أن المادة هي ينبوع الوجود كله ، وهي مصدر التحكم بكل شيء ، فلا جرم أن ذلك السجن الخانق ، كان من وجهة نظرهم هو وحده غرفة العمليات التي يجب أن يتحرك في داخلها البحث العلمي .

غير أن الاكتشافات الجديدة التي حملها القرن العشرون أطاحت بفيزياء نيوتن وتنبؤاته ، لقد قادت علم الفيزياء إلى التخلي عن فكرة المكان المطلق والزمان المطلق ، وإلى اعتبار تكافؤ المادة والطاقة مجرد نتائج مترتبة على محورية الإنسان المراقب . أي إن الإنسان المراقب هو في الواقع جزء أساسي من عالم الفيزياء وأحكامه . وليس مجرد متفرج وحاكم كما هو في تصور نيوتن وأشياعه[1] .

(١) انظر كتاب (العلم في منظوره الجديد) تأليف روبرت م. أغروس ، وجورج ن ستانسيو ، ترجمة كمال خلايلي ص ٢١ و ٢٢ .

وعلم الحياة الحيوانية لم يسر هو الآخر مع نبوءات وتصورات الفكر المادي الذي فار فورته الهائلة إلى أن وصلت ذروتها في غضون القرن التاسع عشر ، بل انتهى - على غير توقع - إلى نقيض ما كان مؤملاً . وعلى النهج ذاته المخيب لآمال أولي الفكر المادي تهاوت نظريات التطور المتعارضة بل المتناسخة ، ولعل آخر من أعلن بطلان تلك الافتراضات كلها ، العالم الفرنسي الدكتور موريس بوكاي ، في كتابه What is the Original of Men? (ما أصل الإنسان ؟) وقد نُقلت ترجمته الإنكليزية إلى اللغة العربية مؤخراً .

في غضون هذا التحول ، كان لا بدّ أن تشتدّ وطأة الأسئلة الشاردة عن حدود العالم المادي المنظور ، على العلم ، وكان لا بدّ للعقل الإنساني ، وعقل الرجل الغربي بخاصة ، أن يلحّ على (العلم) الذي لا يجد أمامه غيره ، للإجابة المقنعة عنها .

غير أن الموقف المفروض على (العلم) وهو في مضيقه المحاصر فيه ، كان يضطره إلى الاعتذار عن أية إجابة عن كُلّ تلك الأسئلة :

إن جاء من يسأله عن نشأة الوجود الإنساني وما كان من خبر الماضي السحيق ، كان جوابه : لا علاقة لي بهذا الأمر !

وإن جاء من يسأله عن مصير الإنسان بعد الموت ، وما هو مقبل عليه ، كان جوابه : وهذا أيضاً لا شأن لي به !..

وإن جاء من يسأل عن العقل وحقيقته أو الروح ومكانها من الجسد ، جاء الجواب ذاته : وهذا أيضاً لا شأن لي به !..

إن من البداهة بمكان أن من حق العقل أن يتساءل في هذه الحالة عما إذا كانت هنالك أي جدوى إذن للعلم ؟

بل إن من حق العقل أن يبحث عن أي ملاذ جديد له ، بعد هذا الاعتذار المزعوم للعلم عن الخوض فيما ليس من وظيفته وشأنه .

ومصدر المأساة كلها ـ كما بدأ يحسّ بها الفكر العربي ـ ذلك القانون المنكّس المقلوب ، والذي يقول بكل جرأة وصراحة : إن التجارب الحسية هي وحدها العلم ؛ أما الدراية العقلية فوهم ، ولا علاقة لها بالعلم قط !!..

غير أنا إذا أعرضنا عن مشكلة التلاعب بالألفاظ ، بوسعنا أن نعلم بأن القرار الأول والأخير في هذا الموضوع إنما هو للعقل .

ويقول العقل : إن مصدر شرف العلم في الكون كله وخلال الأجيال كلها ، إنما هو اليقين الذي يغرسه في العقول مطابقاً للواقع الذي تعلّق به العلم . فحيثما وجد اليقين المطابق فقد تحققت ثمرة العلم ، بل تحقق معناه ومضمونه . ولْيُسَمِّ من شاء من الناس هذا اليقين ما شاء ، وليفصل بينه وبين كلمة (العلم) بكل ما يروق له من الحجب والفواصل المتنوعة ، فإنما المقصد أن يتحقق الجوهر والمعنى ، ولا حرج بعد ذلك أن تختلف العبارات والألفاظ أو أن يستبدل اصطلاح بغيره[1] .

☆ ☆ ☆

(١) اقرأ فصل : المثيولوجيا ، والعلم ، والقرآن ، من كتاب (هذه مشكلاتهم) لكاتب هذا البحث .

وبقطع النظر عن القرار الذي سينتهي إليه الغربيون بعد هذا المنعطف الذي يتجاوزونه الآن بصدد وضع منظور جديد لمعنى العلم ، نعود إلى محور بحثنا هذا ، فنتساءل :

هل بوسع العقل أن يصل إلى يقين مطابق للواقع عن نشأة الإنسان وأصله وعن نهايته ومصيره ، وعن كثير من القضايا الغيبية الكامنة في ذاته أو المحيطة به ، إن هو سلك إلى ذلك المنهج المنطقي المدروس والقائم على قواعد علمية معتمدة من العقل والعلم ، وذلك قبل أن يحال العلم إلى التقاعد ويتخلّى عن أدقّ مهامّه التي كانت منوطة به ، وهو رسم السبل المنطقية التي من شأنها إيصال العقل إلى اليقين المطابق للواقع ، بالنسبة إلى أي مشكلة يطمح إلى حلّها والانتهاء إلى يقين صادق بشأنها ؟

والجواب : نعم ، بوسع العقل أن يصل إلى هذا اليقين ، في كل عصر ، مهما اختلفت الاصطلاحات وتنوعت الحضارات ، إن تهيأ له المنهج المنطقي السديد والمتفق مع طبيعة المسألة التي يراد فهمها ، والوصول إلى يقين صائب بشأنها .

لقد قلنا إن كل ما يخضع للتجربة والمشاهدة ، فالمنهج فيه

هو الاعتماد على التجربة الحسية فعلاً ، ولا يغني عن هذا المنهج شيء .

وإن كانت مما لا يخضع للحس ، كالغيوب المطوية في الماضي السحيق أو المخبوءة وراء المستقبل البعيد ، فالمنهج للوصول إلى يقين عقلي بشأنها الاعتماد على الخبر الصادق . ولن يكون الخبر صادقاً صدقاً تاماً خالياً عن الشوائب في حكم العقل إلا إن سلم من الزيف والدس في طريقه ، وكان منبثقاً عن صاحب هذه الغيوب وعلاّمها في مصدره .

ومن الثابت يقيناً أن جلّ المعارف اليقينية التي يكتسبها الناس على اختلاف فئاتهم وثقافاتهم متعلقة بموضوعات ومسائل غيبية ، وإنما اكتسبوها عن طريق هذا الخبر الصادق ، بعد تمحيصه من الشوائب .

إن يقيننا بالثورة البريطانية ثم الثورة الفرنسية ، ويقيننا بوجود أثر تاريخي يسمى (تاج محل) في الهند أو (الأهرامات) في القاهرة ، ويقيننا بما أجمعت عليه الأرصاد

الجوية من كسوف سيظهر على سطح القمر في ميقات لاحق محدد ـ لم ينبثق شيء منه عن تجربة ولا مشاهدة ـ ولكنه جاء ثمرة لخبر متواتر نال الثقة العقلية لدينا في كل من طريقه ومصدره . ولا شك أن هذا اليقين القائم على هذه الدعامة العقلية والمنطقية ، لا يتدانى عن اليقين المنبثق عن الأحكام العلمية القائمة على التجربة والمشاهدة .

إن المصدر الذي أورثنا اليقين بهذه الأحداث التاريخية أو المعالم الأثرية ، على الرغم من أننا لم نشاهدها ، هو ذاته المصدر الذي ينبغي أن يورثنا اليقين بالأنباء الغيبية المتعلقة بماضي الكون ومصيره ، وأحداث ما بعد الموت والنشأة الثانية التي لا بدّ أن ينتهي إليها الإنسان .

ذلك لأن هذه الأنباء جاءت هي الأخرى ثمرة خبر قطعي متواتر ، نال الثقة العقلية لدينا في كل من طريقه ومصدره . وهذا الخبر هو ذاته ما نعنيه بالوحي .

أما الطريق الذي وصلت إلينا هذه الأنباء بوساطته والذي

حاز لدينا الثقة واليقين ، فهو الوحي الذي تنزل على محمد ﷺ أي الملك الذي تنزل عليه من السماء وأنبأه بهذه الأخبار وغيرها ، من خلال الكلام الذي ألقاه إليه ، والذي لم يكن لمحمد عليه الصلاة والسلام أيّ تدخل لا في صياغة ألفاظهِ ولا في شيء من مضمونه ومعانيه ، وهو ما يطلق عليه : (القرآن) .

إن بوسع أي باحث موضوعي متحرر عن العصبية وتيارات التقاليد والبيئة أن يرجع فيدرس حياة محمد ﷺ ، قبل النبوة وبعدها ، وأن يدرس تلك الوثيقة التاريخية التي تسمى بـ (وثيقة بدء الوحي) وأن يتعرف على القرآن من حيث صياغته اللفظية والمعاني التي تضمنها ، ليدرك بل ليستيقن بشكل قاطع أن القرآن ليس من تأليف محمد وكلامه ، لا من حيث الصياغة اللفظية ولا من حيث المضمون والمعاني .

إن نظرة سريعة إلى آيات العتاب ، بل آيات التنبيه الشديدة ، الموجهة إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، في القرآن ، تجعل افتراض كون القرآن من تأليف محمد ووضعه أضحوكة عابثة لا يقبلها عقل ، فكيف إذا وقفت على تلك الآيات

الأخرى التي تخطئ محمداً ﷺ في بعض اجتهاداته ، وترشده إلى الصواب المخالف لرأيه ، أو التي تتحدث عن أنباء تتعلق بماضٍ سحيق ، ما كان يعلمها لا هو ولا قومه من قبل ، أو التي تتناول قوانين علمية ، لم يكن الإنسان العربي آنذاك في حالة تمكنه من معرفتها والاطلاع عليها ؟

هذا فضلاً عن شخصية محمد ﷺ التي يتجلّى فيها مثال الصدق والنزاهة والترفع عن الأهواء والمصالح الخاصة ، أمام كل ناظر ، مهما كانت نحلته .

لقد افترض العرب الذين كانوا من حوله أنه ربما كان يطمح من خلال دعوته إلى مُلك أو مال أو زعامة ، فعرضوا عليه ذلك كله على أن يتخلى عن دعوتهم إلى توحيد الله عز وجل وإلى هذا الدين الذي لا عهد لهم به ، وأعطوه على ذلك المواثيق والعهود .. ولكنه أجابهم قائلاً :

« ما جئتكم بما جئتكم به أبغي مالكم أو الشرف فيكم أو السؤدد عليكم ولكن الله جعلني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً ،

فأبلغتكموه ، فإن تقبلوه فذلك حظكم مني وحظي منكم ، وإن ترفضوا أصبر لحكم الله حتى يقضي بيني وبينكم » .

على أن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يكن بدعاً من الرسل ، ولم يكن الوحي الذي تنزل عليه ظاهرة جديدة في حياة الإنسانية وتاريخها . بل سبقه في المهمة ذاتها رسل وأنبياء كثيرون ، لا مجال للقول بأنهم جميعاً ، على اختلافهم وتباعد عصورهم ، كاذبون على الناس مفتئتون على الله !..

إن ظاهرة الوحي حقيقة واحدة ذات معنى واحد في تاريخ الوجود الإنساني ، مهما تعدد الأشخاص الذين كانوا مناطاً لهذا الوحي . ومن التعسف في القول والتطرف في الحكم تصور هذه الظاهرة على أنها شعور داخلي كان يساور نفوس أولئك الرجال ، وافتراض أن ما يسمى رسالة أو نبوة شيء وهمي لا وجود له في تاريخ الإنسانية قط .

إن هذا الافتراض قد يتلاءم مع العقليات التي تنكر وجود الخالق الأوحد عز وجل . إذ لا معنى للنبوة ولا لظاهرة الوحي في ظلّ هذا الإنكار .

أما مع اليقين بوجود هذا الإله ـ وقد سبق أن أوضحنا الدلائل القاطعة على وجوده ـ فإن إنكار النبوة أو الوحي من حيث هو ، مظهر للتناقض الذي يشمئز منه الطبع ويترفع فوقه العقل ، أي عقل .

إن الوحي ليس إلا أسلوباً معيناً من خطاب الله لهذه الصفوة من خليقته ، وإسقاط هذا الخطاب من علاقة ما بين الخالق وعباده ينطوي على قرار ضمني بأن هذا الإله عابث متلاعب !..

ومن المستحيل ، يقيناً ، أن يجتمع في العقل هذان التصوران المتناقضان : إله خالق ، وتلاعب عابث .

نعم ، إننا لا نشك أن أنباء الوحي الإلهي الذي تناقلته الأجيال ، لم تخل من الشوائب ، بل تسرب إليها كثير من الدس والتبديل والتغيير . ونحن لا نشك أن اليهود ممن أقدموا على هذا الدس والتبديل في فترات متفرقة من تاريخ الرسل والأنبياء .

غير أن هذا الواقع لا يعود بالنقض على ثبوت أصل الوحي

وأساس النبوة . بل الأمر بالعكس تماماً ، إن ثبوت عمليات الدس والتلاعب على الوحي والتعليمات التي تنزلت على الرسل والأنبياء ، ما هو إلا فرع عن ثبوت حقيقة الوحي الإلهي ووجود رسل وأنبياء صادقين في التاريخ . إذ التزييف لا يكون تزييفاً ، إلا عندما تكون ثمة حقيقة يتلاعب بها المزيف ويغير منها ، بحيث لو لم توجد تلك الحقيقة لما تحقق التزييف .

إذن فحقيقة معنى النبوة والوحي الذي يستلزمها ، شيء ثابت ومستقر في التاريخ ، بل هو الظل الملازم لحقيقة وجود الله عز وجل . بقطع النظر عن التحريف والتبديل اللذين طرأا على هذا الوحي الإلهي .

على أن وجود هذا التحريف ، لا يشكل في هذا العصر أي معضلة أمام من يريد أن يصغي إلى تعاليم الله ويتمسك بهديه .

ذلك لأنا عرفنا ، فيما أوضحناه من قبل ، أن الدين الذي ألزم الله به عباده دين واحد ، أي إن أنباء الوحي الإلهي عن قصة هذا الكون وقصة الرحلة الإنسانية ومآله بعد الموت

وعلاقتـه بـالله عز وجل ، منسجمـة متفقـة خلال بعثـة الرسـل والأنبياء جميعاً ، لا تجد بينها أي تناقض أو تشاكس .

وقـد ختمت تلـك الرسـالات والنبـوات التي انتشرت في مختلف بقاع المعمورة ، ببعثـة خـاتم الرسل والأنبيـاء محمـد عليـه الصلاة والسلام الـذي أرسل إلى النـاس كافـة في مختلف الأزمنـة والبقاع .

فقد قُضِيَ إذن على الزيف بهـذا التجـديـد الـذي ختمت بـه الرسالات . ومهما التبس على الإنسان الحق بـالبـاطل ، عنـدمـا يقبل على بقايا الكتب السماوية التي وصلت إليه ، فـإن بوسعـه أن يجد المضمون الحقيقي لتلك الكتب كلها ، في الكتاب الجـامع الأخير الذي نزل وحياً على محمد ﷺ . ألا وهو القرآن .

ولقد علم البـاحثون والمؤرخون جميعاً أن القرآن هو الكتاب الذي سلم إلى عصرنا هذا من أي تحريف أو تبـديل . وليس هـذا إلا مصداقاً لقول الله تعالى في القرآن : ﴿ إِنَّـا نَحْنُ نَزَّلْنَـا الـذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُوْنَ ﴾ [الحجر : ١٥/٩] .

إذن فقد اجتمعت الرسالات السماوية كلها في هذه الرسـالـة الجـامعـة الأخيرة ، وتلاقت العقـائـد التي أوحي بهـا إلى الرسـل والأنبياء في العقيدة التي أكدها القرآن ورسّخ بنودها إلى أن تقوم الساعة .

إلاّ أن هذه الرسالة الأخيرة حوت ، بـالإضـافـة إلى مـا قـد حوته الرسالات السابقة ، تشريعاً متكاملاً مرنـاً صـالحـاً للنـاس جميعـاً مهما اختلفت المصـالـح والعصـور . وضـع القرآن كليـاتـه وقواعده العامة ، وبينت السنة النبوية[1] تفاصيل هذه القواعـد وجزئياتها .

ومما يؤكد أن الرسالات السماوية السابقة كلهـا قـد انطوت في الرسـالـة الجـامعـة الأخيرة التي بعث بهـا محمـد عليـه الصلاة والسلام إلى الناس كافة ، ما يؤكده القرآن أكثر من مرة ، من أن

(١) السنة النبوية وحي غير متلو ، أي إنها مجموع ما أوحى الله به إلى محمد عليه الصلاة والسلام من المعـاني المجردة عن ضوابـط الصيـاغـة والألفـاظ . أمـا القرآن فما أوحي بـه إلى رسول الله لفظـاً ومعنى ، وليس لـه ﷺ من دورٍ فيه إلا النقل والأداء .

الإيمان بنبوة محمد ﷺ لا قيمة له عند الله عز وجل إلا إن تضمن الإيمان بنبوة من سبقه من الرسل والأنبياء مفصَّلين بأسمائهم التي نصّ القرآن عليها ـ وقد ذكر القرآن أسماء خمسة وعشرين منهم ـ مع الإيمان بما تنزل عليهم من الكتب التي أوحي بها إليهم ، بقطع النظر عما طرأ عليها من التحريف والتبديل فيما بعد .

انظر إلى قوله عز وجل : ﴿ آمَنَ الرَّسُوْلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ . لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيْرُ ﴾ [البقرة : ٢/٢٨٥] .

وتأمل في قوله عز وجل في السورة التي بعدها : ﴿ الم ، اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَاْ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاْةَ وَالإِنْجِيْلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِلنَّاْسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا بِآيَاْتِ اللهِ لَهُمْ عَذَاْبٌ شَدِيْدٌ وَاللهُ عَزِيْزٌ ذُو انْتِقَاْمٍ ﴾ [آل عمران : ٣/١ ـ ٤] .

ولاحظ كيف يهدد القرآن هنا ، الذين يكفرون بآيات

الله ، أي عامةً ، سواء منها ما حواه الإنجيل أو التوراة أو القرآن .

ومن هنا كان الإيمان الصادق بالقرآن إيماناً صادقاً بسائر الرسل والكتب المنزلة من قبل . ومن ثم فإنه يحلّ بالنسبة للباحث مشكلة التحريف الذي طرأ على تلك الكتب السابقة أو بعضها ، إذ له في الإيمان الإجمالي بتلك الكتب ، التي كانت صحيحة في أصلها ، عن طريق إيمانه بكل ما هو ثابت في القرآن ، ما يخرجه من هذا التيه ويكفيه مؤونة البحث عن الجذور والأصول . لا سيما وإن إيمانه بالقرآن يضطره إلى الإيمان بنبوة سيدنا عيسى وسيدنا موسى ، وسائر الأنبياء الذين خلوا من قبل ، تفصيلاً فيما فصله القرآن ، وإجمالاً فيما أجمله .

وجدير أن نوضح هنا أن كلمة (الإسلام) ليست عنواناً أو اسماً لخصوص ما بعث به محمد عليه الصلاة والسلام من العقائد والأحكام ، كما قد يتوهم بعض الناس ، بل هو اسم لخضوع الإنسان واستسلامه لجملة ما أوحى الله به إلى رسله وأنبيائه أياً كانوا وفي أي عصر وجدوا .

فالذين أذعنوا للحق الذي جاء به إبراهيم عليه الصلاة والسلام مسلمون ، والذين أذعنوا لما بعث به الأنبياء والرسل الذين جاؤوا من بعده ، مثل موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، مسلمون . والذين أذعنوا لما بعث به خاتم الرسل والأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام مسلمون أيضاً .

وهذا معنى قول الله تعالى في القرآن : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِيْ هَذَا ﴾ [الحج : ٢٢/٧٨] .

وهو يتجلى واضحاً في قوله عز وجل : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيْمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِيْ الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِيْنَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِيْنَ ، وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيْهِ وَيَعْقُوْبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّيْنَ فَلاَ تَمُوْتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُّسلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢/١٣٠ ـ ١٣٣] .

وعندما أقبل إلى محمد ﷺ وفد من نصارى الحبشة ، وسمعوا القرآن وما تضمنه من العقائد والتعليمات وحديثه عن الرسل والأنبياء الصادقين ، أذعنوا للقرآن وآمنوا بنبوة محمد عليه

الصلاة والسلام وما جاء به ، وقالوا له : إن إسلامنا وإيماننا بهذه الحقائق أمرٌ ثابت ومستقر في قلوبنا من قبل ، أي بحكم إيماننا السابق بعيسى عليه الصلاة والسلام .

وهؤلاء الوافدون هم الذين عناهم القرآن بقوله عز وجل :

﴿ الَّذِيْنَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قَبلِهِ هُمْ بِهِ يُؤمِنُوْنَ ، وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا ، إِنَّا كُنَّا مِن قَبلِهِ مُسْلِمِيْنَ . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَّرَّتَينِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُوْنَ ، وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغوَ أَعرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِيْنَ ﴾ [القصص : ٢٨/٥٢ ـ ٥٤] .

وما عرف به أتباع سيدنا عيسى من لقب النصارى أو المسيحيين ، وأتباع سيدنا موسى من لقب اليهود ، ليس بديلاً عن كلمة الإسلام أو احترازاً عنه ، بل هو مجرد تعبير عن الانتماء إلى النبي الذي بعث إليهم كما لو قيل عن المسلمين اليوم : محمديون ، ثم استمر هذا التعبير وغدا عنواناً على الدين الذي اتخذ

شكلاً استقلالياً ومنفصلاً عن ينبوع الدين الواحد ، بمقتضى العوامل والتحريفات التي تسربت إليه من بعد . فظن كثير من الناس أن هذه الأسماء المختلفة : النصرانية ، اليهودية ، الإسلام ، عناوين على أديان مختلفة . وهو وهم باطل مخالف للحقيقة التاريخية ، وإن كان منطبقاً مع الأسف على تصورات كثير من الناس اليوم .

وقد عبّر القرآن عن هذه الحقيقة أدق تعبير بعبارة موجزة جامعة ، وذلك في قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِيْنَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ ، بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٩/٣] .

☆ ☆ ☆

وصفوة القول أن الصانع هو المرجع لمعرفة ما خفي واستبهم في الجهاز المصنوع .. تلك حقيقة علمية بدهية لا يماري فيها أحد .

وهذا الكون الذي نراه أعقد جهاز مصنوع يمكن أن تبصره عيناك . وهو دليل حتمي على وجود صانعه المبدع الحكيم ، وقد مرّ بيانه .

وقد علم الإنسان من هذا الكون ما هو خاضع للحس داخل في سلطان التجربة والمشاهدة ، واستغلق عليه ما وراء ذلك ، وهو الجانب الأكبر والأهم منه .

فما المرجع العلمي في إدراك هذا الجانب المستغلق على حقيقته بعيداً عن شوائب الوهم والخطأ ؟

قلنا إن المرجع لمعرفة ذلك ، هو الصانع ذاته ، عن طريق الإصغاء إلى بيانه وشرحه .

وإذا كان السبيل إلى معرفة بيان الصانع ، في الأجهزة الإنسانية الصغرى المتداولة بين الناس ، هو الحصول على ما يسمى (الكاتالوك) ممهوراً بختم المصنع واسمه ، فما هو السبيل للحصول على بيان الصانع الواحد الكبير جلَّ جلاله ، لمعرفة خفايا كونه العظيم ؟

أجاب عن هذا السؤال الكبير الذي لا أعلم سؤالاً أكبر منه في حياة الإنسان ، هذا الإله الصانع المبدع ذاته ، فقد أجاب عنه بقوله :

﴿ قَدْ جَاْءَكُمْ مِّنَ اللهِ نُوْرٌ وَكِتَاْبٌ مُّبِيْنٌ يَهْدِيْ بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَاْنَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاْتِ إِلَى النُّوْرِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهدِيْهِم إِلَى صِرَاْطٍ مُّسْتَقِيْمٍ ﴾ [المائدة : ١٥/٥ ـ ١٦] .

وقد علمت أن النور هنا هو الخبر الصادق الوارد من الله لعباده في بيان كل ما هو غيب ومستغلق من أمر الكون ، وهو ما يسمى بالوحي .

ترى ما الذي يقصي الإنسان ، بعد هذا ، عن الالتفات إلى هذا النور ؟ ما الذي يجعله يعرض عن بيان الصانع لحقيقة ما صنع ؟

إنه أحد شيئين : إما إنكار وجود الصانع من حيث هو ، وقد علمنا أنها رعونة فكرية عجيبة لا تدانيها أي رعونة . وإما

الركون إلى عصبية تجنح بصاحبها إلى الشهوات والأهواء ، أو التقيد بالتقاليد والخضوع المطلق لما كان عليه الآباء والأجداد .

وإني لأربأ بنفسي وبالقارئ ، أن نكون من أحد الفريقين المستعبَدين .

فلنقبل إذن إلى هذا (النور) الرباني الذي جاء مكافئاً للبصيرة ، كما تقبل طواعية إلى نور الشمس الذي جاء مكافئاً للبصر . ولنبالغ في الثناء على الله عز وجل إذ أنجدنا وأكرمنا بكلا هذين النورين .

ثم لنصغ معاً إلى خلاصة ما قد تضمنه هذا (النور) ، هذا البيان الإلهي عن حقيقة الكون والإنسان والحياة ، وكل ما قد يتساءل عنه الإنسان فيما يتعلق بذاته ومصيره والمهمة التي خلق للقيام بها في هذه الحياة .

ماذا يقول البيان الإلهي ؟

والآن علينا أن نصغي إلى النبأ الذي جاءنا عن طريق الخبر الصادق (الوحي) مما يتعلق بأمرنا ومصيرنا ، ومما لا غنى لنا عن معرفته .

وإنما نستعرض من ذلك ، هنا ، الخطوط العريضة والكليات العامة ، تاركين التفاصيل للمرحلة التي تلي هذه .

وعلينا أن نجزم بأن الوحي الذي جاءنا بهذا البيان ، هو الوحي الإلهي العام الذي تنزل على سائر الرسل والأنبياء دون أي تفريق بين أحد منهم ، ثم تأكّد وترسَّخ وتعمَّم في الوحي الأخير الذي تنزل على آخر أولئك الرسل ، وهو محمد عليه الصلاة والسلام .

يقول لنا هذا البيان :

١ ـ الإنسان عبد مملوك لله ، يتمتع بكثير من الطاقات

والصفات السامية ، ولكنه لا يملك شيئاً منها . إنه منفعل بها وليس فاعلاً لشيء منها . ومن ثم فهو خاضع لقانون الله الذي قضى بأن ينشأ في ضعف ، ثم يتحول من ضعف إلى قوة ، ثم يعود من قوة إلى ضعف فموت .

٢ ـ الإنسان أكرم مخلوق على الله ، من حيث الجنس والماهية ، متعه بما لم يمتع به غيره من الصفات ، من أبرزها العقل والعلم ، وسخّر له ، أي لصالحه ، كل ما حوله من المكونات : أما البعض منها فسخر له تسخيراً ذاتياً مباشراً ، دون حاجة من الإنسان إلى استخدامه ، وأما البعض الآخر فسخّر له عن طريق سلوك السبل إلى استخدامه ، والسبيل إلى ذلك هو العلم وما يتبعه من الجهد العملي .

٣ ـ العقل الإنساني هو مرآة وجود الله . ومن ثم فإن عليه أن يبقي على هذه المرآة صافية ليشرق عليها ، باستمرار ، هذا الوجود الرّباني . إن وظائفه الجزئية مهما كثرت وتنوعت فإن عليه أنْ يصبَّها جميعاً في هذه المهمة الكلية الكبرى : أن يكون

أجلّ مظهر كوني لوجود الله عزّ وجل . وهذا معنى قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦/٥١] .

٤ ـ عبودية الإنسان لله تعالى تتكون من جانبين : واقع حتمي يخضع له وينطبع به الناس جميعاً بمن فيهم المؤمنون والجاحدون ، وسلوك اختياري يمتاز به الذين عرفوا الله فآمنوا به ، وخضعوا لسلطانه وتعاليه . والمطلوب من الإنسان أن يجعل سلوكه الاختياري منسجماً مع واقعه الاضطراري ، يسير في حياته سيرة العبيد المملوكين ، لا سيرة الجبابرة المالكين ، وذلك بالانصياع لأوامر الله وأحكامه .

٥ ـ تتلخص الأوامر السلوكية الصادرة من الله تعالى لعباده في دعوتهم إلى عمارة هذه الأرض ، بمعناها الحضاري والاجتماعي العام ، على أساس من العدل والحكمة والحب . وهذه المعاني الثلاثة من أبرز صفات الخالق عز وجل .

٦ ـ لما كان تطبيق الأوامر السلوكية متوقفاً على اليقين

العقلي بالحقائق الاعتقادية فقد كان على الإنسان أن يستيقن الحقائق التالية :

أ ـ الله عز وجلّ واحد في ذاته فليس معه أي شريك في الرّبوبية ، وواحد في صفاته فلن تجد في عباده من يشترك معه في أي من صفاته ، وواحد في أفعاله فلا يشاركه أحد فيما هو من شأنه ، كالخلق والنفع والضّر والإحياء والإماتة .

والأسباب التي نراها أسباباً لغيرها ، ليست إلا أسباباً جعلية ، أي أعطاها الله صورة الفاعلية ، بينما الفاعل الحقيقي هو الله عزّ وجل ، إذ هو الخالق الأوحد للأسباب والمسببات كلها .

ب ـ الله عزّ وجلّ لا نظير ولا شبيه له قط ، وكل ما قد خطر في بالك فالله بخلاف ذلك . إذن ، فهو لم يلد ولم يولد ، ولا يتحيز في مكان ، ولا يحويه زمان ، وليس جسماً أو عرضاً أو شيئاً مما يدخل في سلطان الحواس . وبالجملة فهو كما قال عزّ وجلّ عن ذاته : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١/٤٢] .

جـ ـ كل شيء بخلق الله وحده ، وهو يعني بالضرورة أن كل ما عدا الله فهو حادث ، إذ إنه مخلوق ، والخلق لا يصدر إلا بابتداء .

د ـ كل شيء بقضاء الله وقدره . والقضاء علم الله بكل ما سيقع ، والقدر وقوع الأشياء طبقاً لعلم الله . وقد متع الله عباده بالإرادة والاختيار وحرية التصرف . ولا شك أن كل ما يفعله بعباده حق وعدل .

هـ ـ مما لا ريب فيه أن الله عزّ وجلّ يُرى يوم القيامة بالأبصار وإنما يراه المؤمنون الذين ختم لهم بالحسنى ، مع العلم بأن هذه الرؤية التي وعد الله بها عباده المؤمنين ، لا تستلزم أي كيفية أو تحيّزاً في جهة ما . فإن الله قادر على أن يمتع عباده هؤلاء بطاقة إبصار لا تستلزم شيئاً من ذلك ، فيرونه بها دون تحيّز ولا كيف .

و ـ الموت ليس عدماً بعد وجود ، كما يتوهم بعض الناس بل هو انتقال من هذه الحياة الدنيوية إلى حياة أخرى تسمى

الحياة البرزخية ، تظل الروح موجودة فيها لحساب الجسد الذي فارقته .

ومن ثم فإن الميت يتعرض لسؤال ملكين عن الحال التي كان عليها في الدنيا ، ثم يتعرض لألوان من العذاب أو النعيم . كما وردت بذلك النصوص القرآنية الصريحة والأحاديث الكثيرة التي بلغت مبلغ التواتر المعنوي .

ز ـ بعث الأجساد مع أرواحها بعد الموت حق ثابت لا مرية فيه ، بمقتضى النصوص القاطعة الكثيرة في القرآن . وحسبك منها قوله تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا أن لَّنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن : ٦٤/٧] .

ح ـ أحداث يوم القيامة كثيرة وجسيمة ، ويكاد يكون ثلث القرآن وصفاً لها وبياناً لأهميتها ، ومن أبرز هذه الأحداث :

الحساب : فقد ثبت أن الله عزّ وجلّ يحاسب الناس جميعاً كلاًّ على حدة ، ويقوم هذا الحساب على أساس من العدل

المطلق ، فلا يتحمل إنسان شيئاً من وزر الآخر أو خطيئته ، وإنما يحمّل كلٌّ إنسان تبعات عمله هو دون غيره . وأساس ذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ﴾ [الإسراء : ١٣/١٧] . أي لن نحمّل إنساناً شؤم إنسان آخر ، بل الشؤم يظل منوطاً بمصدره وصاحبه فهو الذي يتحمل عواقبه وآثاره .

ومثل ذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [فاطر : ١٨/٣٥] .

وقوله عزّ وجلّ : ﴿ اليَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ اليَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيْعُ الحِسَابِ ﴾ [غافر : ١٧/٤٠] .

الميزان : وأساس ذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَنَضَعُ المَوَازِيْنَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَو كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِيْنَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧/٢١] .

ولا يعلم صفة هذا الميزان وعظمه أحد إلا الله ، فتوضع فيه الحسنات والسيئات ، بعد أن تتجسد وتتصف بالثقل الذي يلائمها .

الصراط : ومن الدلائل عليه قول الله تعالى : ﴿ وَلَو نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِم فَاستَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبصِرُونَ ﴾ [يس : ٦٦/٣٦] . وقول رسول الله ﷺ : « ثم يؤتى بالصراط فينصب على متن جهنم .. » .

فيرد الناس جميعاً على هذا الصراط ويلزمون بالسير فوقه ، فمنهم من يتسع تحت قدميه وأمامه ويُعطى قوة هائلة في الإسراع والمرور فوقه ، ومنهم من يدق هذا الطريق أمامه وتحت قدميه بحيث يغدو أدق من الشعرة ، كما أخبر رسول الله في الحديث الصحيح ، فيتساقط الكثير منهم يمنة أو يسرة ، ويسلم آخرون فيتجاوزونه إلى الجنّة .

ط ـ عاقبة الإنسان أخيراً إما إلى عالَم من النعيم المقيم لكل من الجسد والروح وقد وصفه الله عزّ وجلّ في القرآن بقوله : ﴿ فِيهَا مَا تَشْتَهِيْهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُم فِيْهَا خَالِدُونَ ﴾

[الزخرف : ٧١/٤٣] . وإما إلى عالم من العذاب والآلام الجسمية لكل من الجسد والروح أيضاً ، وقد وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ، فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٤١/٥٦ ـ ٤٤] .

ي ـ قيام الساعة له أشراط كثيرة ، أي علامات . وإن من أهمها نزول سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام الذي لم يقتل ولم يمت بعد ، طبقاً لما أكّد البيان الإلهي في القرآن أكثر من مرة ، بل استلبه الله تعالى ممن حاولوا قتله ، وألقى شبهه على أحدهم ، وقد جعل الله تعالى نزوله وظهوره قبيل قيام الساعة علامة من علامات قربها ، كما جعل ظهوره تأكيداً لوحدة الدين ووحدانية الله عزّ وجلّ ، ويحكم في الناس بالقرآن والسّنة وتجتمع الملل كلها في عهده على الحق[١] ، ثم يتوفاه الله تعالى طبقاً لقراره الذي لا مردّ له ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠/٣٩] .

(١) لا يتنافى ظهوره مع كون محمد ﷺ خاتم النبيين ، إذ إن الوحي يكون منقطعاً عنه آنذاك ، فلن يكون ظهوره إذن بوصف كونه نبياً بل واحداً من الناس .

٧ ـ الدين الحق الذي ألزم الله عباده جميعاً يتكون من إيمان وإسلام وإحسان .

أما الإيمان فهو اللباب الذي محله العقل واليقين القلبي ، ويتمثل في اليقين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

وأما الإسلام ، فمركزه ومجلاه ظاهر الكيان الإنساني ، ويتمثل في النطق بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والإذعان والاستسلام لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت إن استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلاً .

والإسلام يستتبع آثاره مستقلاً ومنفصلاً عن الإيمان ، ولكن في دار الدنيا فقط . فالمسلم يعامَل في دار الدنيا على أنه مسلم مؤمن دون أي انتقاص أو تفريق بينه وبين الآخرين . إلا أن كلاًّ من الإسلام والإيمان متلازمان بالنسبة لمحاسبة الله عباده يوم القيامة . أي فلا ينجو يوم القيامة مسلم بدون إيمان قلبي ، كما لا ينجو المؤمن الذي لم يذعن لأركان الإسلام ولم ينطق

بشهادته ، تأبيّاً واستكباراً ، أما عدم النطق أو عدم الإعلان عن خضوعه وانصياعه لأركان الإسلام ، لخوف على النفس أو لسبب آخر غير العناد والاستكبار ، فلا يخرجه من عداد المؤمنين الصادقين عند الله يوم القيامة ، ويغفر الله له عدم ظهور إيمانه الخفي ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان .

وأما الإحسان ، فهو كما قال عنه رسول الله ﷺ : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

ولا ريب أن هذه الحالة درجة تعلو بالإنسان على أصل كل من الإيمان والإسلام . ومدارها على أن يفيض يقينه العقلي على مشاعره الوجدانية وينتشر هذا اليقين في ساحة نفسه . وعندئذٍ يصبح تعامله مع المكوَّنات ورؤيته لها تذكيراً له بالله عزّ وجلّ ، بعد أن كانا شاغلين له عن الله تعالى . فهو لا يرى شيئاً من مظاهر المخلوقات على اختلافها إلا ويرى فيها مظهراً لتجلي

(١) رواه مسلم والترمذي في كتاب الإيمان وأبو داود في كتاب السنة ، والنَّسائي في كتاب الإيمان .

صفات الله تعالى ودلائل وحدانيته وربوبيته . فإذا أقبل هذا الإنسان إلى صلاته لم تقف خواطر الدنيا ومظاهر المكونات حجاباً بينه وبين الله ، لأنها لا تزيده إلا تذكيراً به وتنبيهاً إلى صفات ربوبيته ووحدانيته فبذلك يستطيع أن يعبد الله كأنه يراه .

وإنما سبيل الوصول إلى هذه الدرجة ، درجة الإحسان ، تزكية النفس بالإكثار من ذكر الله عزّ وجلّ ومراقبته ، ومجاهدة النفس لتحريرها من أهوائها ، والتسامي بها عن التعلق بالحياة الدنيا ، ومهما كانت الوسائل إلى ذلك متفقة مع موازين الشرع ، فهو عمل سائغ ومأجور .

والمهم أن نعلم أن الإيمان لا يتم تحصينه ولا المحافظة عليه إلا في حصن الإحسان . فمن أهمل السعي إلى بلوغ هذه الدرجة لم يؤمن على إيمانه العقلي أن تطيح به عواصف الشهوات والأهواء ، وشدة الانغماس في الملهيات والمنسيات .

☆ ☆ ☆

بعد أن يعرفنا البيان الإلهي على هذه الحقائق ، وبعد أن نستيقنها وتصطبغ مشاعرنا الوجدانية بها ، يأتي دور الواجبات السلوكية والأحكام التشريعية التي يخاطبنا الله عزّ وجلّ بها آمراً أو ناهياً أو موصياً ومنبهاً .

ولسنا هنا بصدد استعراض هذه الأحكام وأنواعها وأهميتها والتعريف بتفاصيلها ، فإن لذلك مناسبات أخرى .

ولكنا نريد أن نلفت النظر إلى العلاقة التلازمية القائمة بين هذه الحقائق الاعتقادية التي يجب أن يعلمها ، والأحكام التشريعية التي يجب أن يأخذ الإنسان نفسه بها .

إننا لا نشك في أن الحكمة العليا من الدين الذي ألزم الله عباده ، هي أن يتبصر الإنسان بأفضل السبل للتعامل مع الإنسان والحياة وسائر المكونات ، فيتخذ لنفسه من ذلك السبيل شرعة ومنهاجاً . وتلك هي الضمانة الكبرى لسعادة الإنسان الفرد ولنشأة المجتمع الإنساني السليم .

أجل تلك هي الحكمة الكبرى من الدين .

ولكن أنى للإنسان أن يخضع لهذه التعاليم ، ويسعى في طواعية تامة إلى تنفيذها والالتزام بها ، إن لم يعلم مصدرها ثم لم يثق بذلك المصدر في علمه أولاً وحكمته ورحمته ثانياً ؟

من أجل ذلك كان لا بدّ للدين أن ينهض وجوده في كيان الإنسان على أساس العقيدة التي تتضمن التعريف بألوهية الله ووحدانيته ، ثم التعريف بعبودية الإنسان لهذا الإله ، ثم الجزم بمثول هذا الإنسان يوم القيامة بين يدي مولاه وخالقه للمقاضاة والجزاء على كل ما قد صدر عنه في دار الدنيا من خير وشر .

فإذا عرف الإنسان هذه الحقائق واستيقنها عقله واطمأن إليها وجدانه ، يتهيأ لقبول سائر التعليمات السلوكية الصادرة إليه من لدن إلّهه الواحد هذا .

ولسوف يقبلها واثقاً بأن فيها الخير كل الخير ، تبيّن له وجه ذلك أو لم يتبينه . إذ هو يعلم أنّ إلّهه حكيم ، فلن يتنكب شرعه عن المنهج العدل والصراط السليم . وهو يعلم أن إلّهه رحيم به ، فلن يأمره إلا بخير مهما جاء ثقيلاً على نفسه ، ولن ينهاه إلا عن شر مهما كان محبباً إلى نفسه وهواه .

غير أن هذه العقيدة التي هي مصدر الثقة بالأحكام التشريعية وأساس الطمأنينة إليها ، تتعرض لآفات وعوامل قد تضعفها فيتراجع سلطانها على الوجدان ، وإن لم يتسرب الشك إليها في العقل ، ويتمثل معظم هذه الآفات في الملهيات والمنسيات الدنيوية التي إن تكاثفت آثارها على الوجدان والشعور حجبت الإنسان عن سلطان هذه المعتقدات، فلم تعد تتفاعل مع عواطفه ووجدانه ، وتراجعت لتصبح حبيسة في حجيرات وعيه .

فكان من حكمة الله تعالى أن وضع أمام الإنسان منهاجاً من (العبادات) كالصلاة ، والصوم ، والحج ، والأذكار .. ألزمه بها على نهج معتدل دون إفراط ولا تفريط ، لتكون غذاء لأصول تلك المعتقدات ، بل لتكون حصناً يقيها من عواصف تلك الملهيات . فمها انغمس الإنسان المسلم من الدنيا في مشاغلها وتعرض لمغرياتها ، فإن في ارتباطه بتلك العبادات واستقامته عليها ، ما يجعل جذع عقيدته الإيمانية قوية متنامية راسخة .

فتلك هي الحكمة الربانية في التكليف بالعبادات .

إنها وقاية للعقيدة .

والعقيدة بدورها أساس لا بدّ منه لتنبعث ثقة العبد بتشريعات ربّه الآمرة والناهية ، والمتعلقة بسائر مرافق الحياة وجوانبها ، من أسرة ومجتمع وحكم ، ومعاملات مالية ، وجنايات وعقوبات ، وعلاقات دولية .. إلخ .

أذكر أن ثلة من الغربيين مختلفي الأجناس الداخلين في الإسلام حديثاً ، زاروني منذ بضع سنوات .

وخلال المحادثة سألني أحدهم قائلاً : لماذا حجب الإسلام عن المرأة حق رئاسة الدولة ؟

فأذكر أنني استجمعت كل الأدلة التي تؤكد أن نفسية المرأة وطبيعتها العضوية وظروفها الاجتماعية لا يمكن أن تتلاءم مع قيامها بمهام رئاسة الدولة في مجتمع إسلامي على خير وجه .

ولما ظننت أني قد أقنعته بهذه الأدلة الموضوعية أو الحيادية ، بادرني قائلاً :

إن بوسعي أن أناقش في كل هذه الدلائل التي ذكرتها ، غير أني على يقين بأن محمداً ﷺ لما أعلن النهي عن تولي المرأة هذا المنصب ، لم يكن ذلك رأياً صادراً منه ، بل كان وحياً من الله أبلغه الناس . ولما كنت واثقاً بحكمة الله وعدله ، فقد كنت على يقين ـ بقطع النظر عن أي دليل ـ بأن هذا هو الحق والعدل .

لقد كان واضحاً أن الدليل الوجيز الذي اعتمد عليه ، كان أقوى بكثير من الفلسفة الطويلة التي ظننت أني أحسنت صنعاً بعرضها .

وإليك هذا المثال الثاني الذي يزيد هذه الحقيقة جلاء ووضوحاً :

عندما نزلت آية تحريم الخمر على رسول الله ﷺ ، وأمر أحد أصحابه أن يذهب فيبلغها الناس ، أقبل كل من سمع الآية إلى دنان الخمر التي عنده فأراقها ـ وكانوا يقتاتون دنان الخمر كما يقتات الناس الحنطة من شدة تعلقهم بالخمر ـ وعمد الذين صادف أنهم كانوا يشربونها ، إلى الأقداح التي في أيديهم

فحطموها ، وارتفعت الأصوات تقول : لبيك لبيك ، لقد انتهينا يا ربّ !..

هذا بينما أقدمت أمريكا في عام (١٩٣٣) إلى هذه التجربة ذاتها ، فأعلنت عن تحريمها الخمر ، بقناعة داخلية تامة ، ولكنها ما لبثت أن نكصت على أعقابها ، وارتدت مترنحة من ألم الحرمان تعبّ أقداحها من جديد .

مع العلم بأن الناس في أمريكا كانوا أكثر علماً من أهالي الجزيرة العربية بأضرار الخمرة وآفاتها !.. فما موجب هذا الفرق ؟

إن الفرق ، أن أولئك العرب استقبلوا بيان التحريم والمنع على أنه حكم الله عزّ وجلّ الذي فاضت أفئدتهم تعظيماً له ومهابة وحباً وثقة مطلقة بأنه لا يأمرهم إلا بخير ولا ينهاهم إلا عن شر . فغالبت هذه المشاعر عاداتهم ورغباتهم حتى غلبتها .

أما الأمريكان فإنما أقدموا على هذا الامتناع ، بمقتضى قناعاتهم العقلية ، بينما تطلعاتهم ورغباتهم النفسية والشهوانية في

تعلقها بالخمرة كما هي ، بل على أشدّها . ومن المعلوم أن القناعة الفكرية إذا تعارضت مع الرغبات والجموحات الغريزية ، فإن الغلبة تكون دائماً للرغبات النفسية لا للقرارات الفكرية .

والحصيلة التي ننتهي إليها ونؤمن بها من وراء هذا الكلام ، أن العقيدة التي تنزل بها الوحي الإلهي إلى الإنسان عن حقيقة الكون والحياة وعلاقة الإنسان بالله الذي لا شريك له ، ومصيره بعد الموت ، لا تدفع صاحبها إلى السلوك الملائم ، إلاّ إن استقرت يقيناً بالعقل ، ثم فاضت منه عاطفةً ووجداناً ، على الفؤاد .

فالإيمان بالله دون محبة له ومخافة منه ، لا يحرك في حياة صاحبه ساكناً ، ولا يبعثه على أي تضحية أو اهتمام في سبيل إيمانه .

ذلك لأن الإنسان يقاد من عواطفه القلبية ، أكثر مما يقاد من قناعاته العقلية .

كثيرون هم الذين يضحون بكل شيء في سبيل ما يحبون أو

حذراً مما يخافون ، ولكن قليل جداً أولئك الذين يضحون في سبيل ما يعلمون .

ألا ترى في ربوع الغرب كثيراً ممن امتلأت عقولهم يقيناً بوجود الله ، وكتبوا المؤلفات الغزيرة الناطقة بهذا الإيمان ؛ ولكنك تنظر إلى سلوك أحدهم فتجده منساقاً وراء وحي غرائزه وشهواته دون أن يقيم أي وزن أو حساب لذلك الإيمان ؟

بل ألا ترى أن العالم الإسلامي مليء بمسلمين من هذا القبيل ، يوقنون بالإسلام ويدافعون عنه بعقلانية نادرة ، ولكنك ترى كلاًّ منهم ـ في الوقت ذاته ـ منصرفاً إلى أهوائه ورغائبه المهينة على قلبه ، مهما كانت تلك الأهواء متعارضة مع مقتضيات ذلك الإيمان !..

☆ ☆ ☆

إذن ، لا بدّ أن نعود فنقرر أن العقيدة الإيمانية بالله عزّ

وجلّ ، لا يمكن أن تفعل فعلها في كيان الإنسان إلا إن غرست يقيناً في العقل ، وهيمنت وجداناً على القلب .

وإذا كان السبيل إلى غرسها في العقل هو العلم ، فإن السبيل إلى انتشارها عاطفةً ووجداناً في الفؤاد ، إنما هو القيام بالعبادات على وجهها ، والمداومة على ذكر الله ومراقبته وتمثل صفاته . فذلك هو الذي يذكي في القلب محبة الله وتعظيمه والخوف منه . ومن ثم يتجه صاحب هذا القلب إلى أوامر الله وتكليفاته بكل طواعية وانصياع ، وقد تجاوب الحب القلبي في ذلك مع اليقين العقلي .

وتلك هي الثغرة الأولى التي لا بدّ من معالجتها لمدّ الجسور الحية بين الإيمان النظري والسلوك العملي ، سواء في نطاق العالم الإسلامي أو في نطاق المجتمعات الغربية .

ولعلّ هذه هي المشكلة الأولى والأخيرة التي تحتاج إلى حلّ . فلنعالج حلّها في هذا الفصل التالي .

مفتاح السعادة الإنسانية

ليس ضائعاً في هذا العصر

كنت بصحبة ثلة من الأصدقاء في مدينة (ستراسبورغ) بفرنسا ، نتبادل الحديث على أعقاب مؤتمر من المؤتمرات الإسلامية ، وكنت أتحدث بمرارة عن خيبة الأمل بالمسلمين وواقعهم الذي هم فيه ، فاتجه إليّ منهم أخ فرنسي مسلم ، سمى نفسه يوسف ، قائلاً : أين أنت من قول الله عزّ وجلّ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِيْنِهِ ، فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوْنَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤمِنِيْنَ ، أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِيْنَ ، يُجَاهِدُوْنَ فِي سَبِيْلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ .. ﴾ [المائدة : ٥٤/٥] .

لا أستطيع أن أصف مدى سعادتي وطربي بهذه الكلمات الوجيزة التي خاطبني بها هذا الأخ الفرنسي .

وعلى الرغم من أن هذه الآية القرآنية رائعة فيما تحمله من مدلول وبشارة ، فإن نشوتي البالغة لم تكن منبعثة من سماع هذه الآية بحدّ ذاتها ، ولكنها كانت منبعثة من أن ينطق بها هذا الإنسان الفرنسي بكل شموخ واعتزاز !..

لقد تأملته ، وهو يجاهد لسانه في النطق بالآية القرآنية على وجهها العربي السليم ، فلم أر فيه إلاّ مظهراً لمصداق هذا الكلام الرباني العظيم .

وتفتحت أمامي ، من هذا الاقتران الأخّاذ بين صيغة هذه الآية والمعنى المتجسد لها في شخص هذا الفرنسي ، آفاق واسعة من الأمل بانعطاف إنساني شامل قريب إلى الإسلام .

ولست أعني به الانعطاف الفكري الذي يتكون رصيده من كثرة الأفكار والفلسفات الكلامية ، بل أعني الانعطاف الوجداني المتجاوب مع الصورة القرآنية الأخاذة : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوْنَهُ ﴾ [المائدة : ٥/٥٤] .

إنني على الرغم من يقيني بالمواقف العدوانية الخفية

والمستعلنة التي يقفها الغرب ضد إسلام المسلمين في بلادهم ، على يقين أيضاً بأن انبعاثاً جديداً للإسلام سيظهر في ربوع الغرب ذاته .

وإن مصدر هذا الأمل ، لا يتمثل في جهد تبشيري يقوم به المسلمون أو في مستوى إسلامي أو حضاري باسق يتمتع به المسلمون في بلادهم ، فإن الأمر - كما هو معلوم - على خلاف ذلك تماماً .

ولكن مصدر الأمل يتمثل في أن الغرب ، منذ سنوات خلت ، توقف عن تقدمه المتصاعد الذي دفعته إليه الأقدار منذ عصر النهضة . فهو اليوم يراوح في مكانه ، ويتحرك ولكن ضمن ما يشبه الدائرة المغلقة .

وأنا لا أعني بالتقدم ، التقدم التقني والعلمي خاصة ، كما لا أعني التقدم العسكري أو العمراني . وإنما أعني التقدم الإنساني عموماً .

ومن المعلوم أن سائر الأنشطة العلمية ، والقوة العسكرية ،

والحركة الاقتصادية .. إنما ينظر إليها على أنها أجزاء متراكبة متآلفة لكلٍ واحد ، هو الحياة الإنسانية بكل مقوماتها ومتطلباتها .

غير أن هذه الأجزاء ، غدت منذ حين أشبه ما تكون بروافد من المياه الصالحة العارمة ، أريد لها أن تتجه من شتى الجوانب ، فتصبّ في أرض مستصلحة مزروعة ، لتينع بالخضرة والخير والغلال ، ولكنها تحولت عن هذه الأرض وتسربت متفرقة بين أودية وقيعان شتى .

العمران يتطاول ، والمخترعات العلمية تتزايد ، والقوى العسكرية تتجه نحو مزيد من القدرة على الدمار ، والمكر السياسي في تألق مستمر . ولكن الإنسان الغربي الذي يفترض أن يكون محور هذه الأنشطة كلها ، والسيد المخدوم من قبل سائر هذه الطاقات ، ما زال منذ حين يقف من آماله الإنسانية أمام ما يشبه الأبواب الموصدة .

إنه يجترّ وحشته من الحياة الرتيبة التي يعيشها .

يحاول بكل السبل أن يعتصر من أسباب النعيم المتراكمة أمامه ، غذاء لعواطفه وأشواقه وظمأ روحه فلا يجد أمامه إلا العصارة التي تغذي جسده الفاره وبطنه المتخم ، وكأنه ليس إلا كتلة من اللحم والعظم والدم !..

يبحث في الدار التي درج منها عن ينابيع عواطفه وسكن فؤاده ، فلا يجد الدار إلا جناحاً فخماً من فندق يأوي إليه النازل لرقاد بعد أرق أو لراحة بعد تعب ، أما الأسرة وصلة ما بين الزوج وزوجه والأبوين وأولادهما ، فذكريات مطوية وأخبار غابرة يرويها الكتّاب والمؤرخون ويحدث عنها جيل لجيل !..

يتلمس من خلال كل ما يمارسه من المتعة وأسباب اللذة المطلقة ، ما يهدف إليه ويحلم به من انشراح صدره وسرور قلبه ، فلا يواجهه إلا الضيق الخانق والكآبة المطبقة . لذا فإن السرور الذي يتمتع به الإنسان الغربي ، هو ما تصنعه له الكأس لا ما قد يفيض به القلب !..

أما قيمة الإنسان هناك ، فإنما يُنظر إليها من خلال مقياس ميكانيكي مجرد ؛ أجل ، فالناس هناك ، ليسوا إلا قطع غيار وعناصر يمكن استبدالها ، داخل آلة ضخمة هي الدولة . بل الإنسان في منظور الصراعات السياسية مجرد رقم رياضي في حساب اعتباري ، إنه ليس إلا كسراً من وحدة مقسمة إلى عدد من الملايين ، ولا تتمثل قيمة هذا الكسر أو الرقم إلا في المصالح المادية التي لا يهدأ التنافس عليها والصراع من حولها !..

هذا هو الإنسان الغربي . إنه يعيش اليوم سجين حضارته المتألقة الجانحة .

ومهما طال به البحث والتنقيب عن مخلص ، فلن يجد لنفسه مخلصاً حقيقياً إلا باللجوء إلى الإسلام .

فهو الذي يعيد إليه اعتباره وقداسته الإنسانية ، وهو الذي سيريه الوجه المؤنس من الحياة خلال كل من مداها القريب والبعيد معاً ، وهو الذي يعيد إلى الأسرة شملها وينشر في الدار روحها . وهو الذي يمدّ القلب بغذائه العاطفي ويروي ظمأه الوجداني وأشواقه العلوية .

من أجل هذا سينبعث الإسلام انبعاثه المرتقب الجديد ، من الغرب ، بل من الغرب أولاً .

لن يكون إقبال الإنسان الغربي إليه ، عن رغبة في استغلاله ، كما هو شأن أولئك الذين يتقنون فن المناورات ، وكما أقبل الرومان يوماً ما إلى المسيحية ، وأقبل يهود (سولانيك)إلى الإسلام .

ذلك لأنهم لن يلتجئوا إليه ابتغاء مزيد من التوسع الاستعماري أو قصداً إلى إصلاح وضع اقتصادي ، أو رغبة في حل مشكلة نفسية أو اجتماعية . وإنما سيكون التجاؤهم إليه بدافع من البحث عن هويتهم الضائعة وأشواقهم التائهة ، وبتعبير آخر : إن انعطافهم إليه سيكون من قبيل عودة الغائب إلى أهله بعد طول ابتعاد وشرود .

وسيكون العامل السحري الذي ينقلهم من أقصى آفاق الإباحية والتفلت ، إلى منتهى حدود الانضباط والتقيد ، دون أن يشعروا بضيق أو تأفف ، عاملاً واحداً لا ثاني له هو الحب !..

وسيكون مصدر هذا الحب ، خيبة آمالهم فيما كانوا يحسبونه سرّ سعادتهم ، من متع الحياة وأهوائها ، والنشوة الراضية التي تنبعث من أفئدتهم على غير توقع لدى أول التفاتة صادقة إلى الله عز وجل .

إن الظمآن الذي ابتلي من الدنيا بسراب إثر سراب ، وقاده الظمأ القتال من خداع إلى خداع مثله ، ثم وقف فجأة على يدٍ حانية رفعت إلى فمه وأسقته أبرد شراب عذب فرات ، لا بدّ أن يعشق اليد وصاحبها . ولا والله ما انتهى واحد من هؤلاء الغربيين من رحلته المضنية إلى محراب العبودية لله عز وجل فرأى في ذلك المحراب ذاته ، وذاق نشوة الإقبال إلى الله والاصطلاح معه بعد طول ضياع وشرود ، إلا وكان حاله مع الله مثل حال ذلك الظمآن التائه ، مع تلك اليد الحانية التي أخرجته من تيهه وأروته من ظمئه .

كان يتنقل من تجربة مضنية إلى أخرى ، ويتجاوز الكؤوس ، إلى الشذوذ ، ثم إلى أفانين المخدرات ... دون أن يجد من يتولى أمره ويشرح صدره ويسرّي عن همه ، حتى إذا رأى

الله بعين بصيرته ومشاعر قلبه ، سمع النداء الإلهي يجذبه إليه قائلاً : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ ... ﴾ [المائدة : ٥٥/٥] ، ولما استسلم لنشوة هذا الخطاب سمعه يقول أيضاً : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِيْنَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِيْنَ لاَ مَوْلَى لَهُم ﴾ [محمد : ١١/٤٧] ، وما كاد يستيقظ من نشوة هذا الكلام ، حتى عاوده النداء قائلاً : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِيْنَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ ، وَالَّذِيْنَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُم الطَّاغُوْتُ يُخْرِجُوْنَهُم مِّنَ النُّوْرِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧/٢] .

لا جرم أن هذا النداء سيجذبه وأمثاله إلى أعلى درجات الأنس بصاحب هذا النداء ، وإلى أصفى مشاعر الحبّ له ، ولسوف يزداد هذا الشعور مع الزمن ، كلما ازداد ابتعاداً من مرارة أيامه السابقة وانغماساً في مشاعر نشوة قربه إلى الله تعالى وممارسة العبودية له .

تعرفت على واحد من هؤلاء منذ سنوات ، شاب أمريكي يدرّس في إحدى جامعات الولايات المتحدة ، وقد دخل الإسلام حديثاً ، وكانت المناسبة التي جمعتني به الاشتراك في

مؤتمر عقد بالرياض ، في المملكة العربية السعودية ، وقد أتيح لنا آنذاك أن نتجه إلى مكة لنؤدي العمرة .

ونظرت إلى هذا الشاب الأمريكي فإذا هو أكثرنا تبتلاً وعبودية لله ، كان يلصق نفسه بالملتزم من البيت العتيق ثم يبقى كذلك ، كالطفل الشارد الخائف الذي اهتدى إلى أمه فالتصق بمأمنه من صدرها لا يريد أن يفارقه ولا ينفك عنه .

ولما انتهينا من أعمال العمرة اكتفى جميعنا بالتقصير ، أما هو فقد آثر أن يحلق شعره من آخره ، وكان يتمتع بشعر ذهبي رائع !..

☆ ☆ ☆

قد يجادل البعض في جدية هذه الحقيقة التي نؤكدها ، أو لعله يرتاب في استمراريتها وفي بلوغها النتائج الكلية المرجوّة ، بسبب أن العالم الإسلامي عامة والعربيّ خاصة ، يعاني من ظروف مؤسفة بل من أخلاقيات صعبة .

فالإسلام في هذه الربوع الإسلامية يبدو وكأنه غير مرغوب فيه على الأغلب ، وما أكثر ما تراه وكأنه ثوب تبرَّم به لابسه !..

على أن الذين يتحدثون ، من هؤلاء المسلمين ، عن الإسلام ويدعون إليه وينافحون عنه ، جماعات وفئات شتى تراها على الأغلب متناحرة متخاصمة ، وقد حوّلوا الإسلام الواحد إلى ما يشبه أدياناً متعارضة متعادية .

ثم إن الساحة تشهد بالإضافة إلى ذلك ، ألواناً من العنف باسم الإسلام وإقامة نظامه وحكمه ، لا عهد للإسلام والمسلمين بها من قبل .

وأقول : إنني لا أنكر معاناة العرب وسائر المجتمعات الإسلامية من هذه الأوضاع والأخلاقيات المؤسفة .

غير أنني أقرر أن شيئاً من هذه الأوضاع لن تحول دون إقبال الغرب على الإسلام إقبالاً ذاتياً حقيقياً كما وصفته ، لا إقبالاً استغلالياً كما يتخوف بعض المراقبين . بل إني أكاد لا أرى علاجاً لهذه الأمراض المستشرية في بلادنا العربية والإسلامية ،

إلاَّ في الأمل الذي يتنامى ، بتوجه الغرب إلى الإسلام ثم بتفهمه وتذوقه لحقيقته الإنسانية الجامعة ، لا بهذا الشكل الابتداعي المزيف الذي أحال الأمة الإسلامية الواحدة إلى أمم بل جماعات متدابرة متباغضة .

لسوف يكون ذلك الإقبال المتحرق الصادق ، خير تصحيح لهذه الفورات الإسلامية ، بل النفسية ، الجانحة . وكما يتبع كثير من المسلمين الغرب اليوم في تبذله وانحرافاته ، فلسوف يتبعه عما قريب كثير من المسلمين في نهضته الإسلامية السليمة عن حظوظ النفس الخالصة عن الشوائب !..

إن في المسلمين كثيراً ممن يتبرمون بدينهم فعلاً ، وإن مجتمعاتهم لتفور بأخلاقيات يشمئز منها الغربيون أنفسهم ، فهل شكّل ذلك غشاوة امتدت على بصائر الغربيين فأقصتهم عن فهم حقيقة الإسلام عندما يريدون أن يفهموه ؟ وكيف اخترق مئات الآلاف منهم هذه الغشاوة فعلاً حتى وصلوا إلى حقيقة الإسلام فاعتنقوه ؟

كما أن انصراف كثير من المسلمين عن إسلامهم وعما تقتضيه

أخلاق الإسلام ، لم يحل بين الغربيين والإسلام الذي اعتنقوه ، فإن تهارج المسلمين فيما بينهم باسم الإسلام ، وجنوح كثير منهم إلى مظاهر من العنف أو التطرف باسم الإسلام ، لن يقوم حائلاً بين الإسلام الحقيقي المتألق وسائر الغربيين المنصرفين اليوم إلى تفهم الإسلام ودراسته .

هذا كله شيء .. وشيء آخر أيضاً ينبغي أن نعرفه ، هو أن الرجل الغربي المثقف يدرك جيداً أن عوامل التهارج الواقع اليوم بين كثير من فئات المسلمين تكمن في خطط تآمرية مرسومة ضد المسلمين في المجتمعات الغربية ذاتها ، وليست نابعة من طبيعة الإسلام ذاته أو من تربية جانحة ورثوها من الإسلام . كذلك التطرف والعنف اللذين ما زالت ظواهرهما تبرز هنا وهناك بين الحين والآخر ، فإن المثقف الغربي المتتبع للأحداث يعلم جيداً أن المندسين من رسل الاستعمار الغربي هم الذين يستثيرون المسلمين ويغرونهم بهذه التصرفات الخاطئة التي تكرّه الناس بالإسلام وتصوره لهم بصورة الشبح المرعب المخيف .

وعندما يعلم المثقفون الغربيون هذه الحقائق ، فإن أفكارهم ومشاعرهم الإنسانية تكون أقرب إلى الدفاع عن الإسلام والشفقة على المسلمين من أن تنساق فتصبح ضحية لأهداف المؤامرة ذاتها .

ومهما يكن ، فإني أحب للقارئ ، أياً كان ، أن لا ينسى حقيقة ذات أهمية كبرى ، هي أن الإسلام الذي نتحدث عنه ونعرف به ، ليس مذهباً وضعياً من هذه المذاهب الوضعية التي تأتي بها عادة جماعات من الناس ، ثم تنسخها وتمضي بها جماعات أخرى .

وإنما هو نظام رباني متكامل خاطب الله به الصفوة المختارة من خليقته في هذه الأرض ، وارتضاه لهم منهجاً مثالياً إنسانياً للتعامل مع الكون والحياة . وصدق الله القائل : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ [المائدة : ٣/٥] .

إن نظاماً وضعه خالق الكون لعباده ، لا يمكن أن يقوضه

أو أن يذهب به تآمر المتآمرين من هؤلاء العباد عليه ، ولو كان ذلك ممكناً من حيث المبدأ لكان هذا الدين أثراً بعد عين ولما بقي منه حتى الأطلال . وصدق الله القائل : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢/٩] .

كل ما في الأمر أن الخطط والتربّصات البشرية تبرز وتطفو على السطح في الجملة ، بينما المخططات الربانية دقيقة في تحركاتها ، كلية كبيرة في حجمها ، فلا تلتقطها عين ولا تستوعبها بصيرة .

إنها أشبه ما تكون ، في علاقتها بالتصرفات التآمرية التي يغدو ويروح بها من يشاء من الناس ، بسفينة عملاقة كبيرة تمخر طريقها في عرض البحر ، وفي أعلى السفينة أشخاص يتحركون ويسرعون في اتجاهات مناقضة لاتجاهاتها . صحيح أن العين لا تكاد تلتقط إلا حركة أولئك الأشخاص لصغرهم ولضخامة السفينة التي تحت أقدامهم ، ولكن العقل المتبصر لا يشك لحظة واحدة أن تحركات أولئك الناس جميعاً مستوعبَةٌ

ومستهلكَةً من قبل تلك المدينة العملاقة التي تتجه في رسوخ تحت أقدامهم إلى حيث خُطِّطَ وبُرْمج لها بكل دقة ونظام .

☆ ☆ ☆

ألا إن الدنيا ستشهد عما قريب أن الحضارة الغربية لم تضيع مفتاح السعادة الإنسانية ، ولم تُلْقِ به في مكان قصيّ لا تطوله يد الإنسانية بعد اليوم كما يتخيل بعض الغربيين المتشائمون .

إن مصباح الإسلام لم يخْبُ نوره بعدُ ، ولسوف يتم العثور على هذا المفتاح الذي ضيعته الحضارة الغربية فعلاً .

ولسوف يتم العثور عليه في ربوع الغرب ذاته .

ولن يتم ذلك إلاّ على هدي من نور الإسلام وضيائه .

ويرحم الله عبقريّ عصره سعيد النورسي الملقب بـ (بديع الزمان) فقد سأله مفتي الديار المصرية آنذاك : الشيخ بخيت المطيعي ، وكانت الخلافة العثمانية في أخريات أيامها :

ما رأيكم بمصير الخلافة العثمانية وما يحاك لها من المكائد ؟

فأجابه قائلاً :

الخلافة العثمانية حبلى ، وستلد الإلحاد يوماً ما ، والدول الأوربية حبلى ، وستلد الإسلام يوماً ما .

وصدق الله القائل : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١/١٢] .

هل نراهن على حلّ الإسلام

لمشكلات الحضارة ؟

من المعروف أن إنسان الحضارة الحديثة ، على الرغم من افتتانه بها ، قد أصبح كثير التبرم بمشكلاتها ، حتى غدا مزدوج الشخصية في نظرته إليها ، منشطر الأفكار والمشاعر تجاهها .

ومشكلات الحضارة الغربية كثيرة ، منها المشكلة الاقتصادية التي لا تزال في تفاقم مضطرد ، ومنها مشكلات الأسرة التي بلغت أقصى حدود التفكك والاضمحلال ، ومنها مشكلة التفريق العنصري والآثار الناجمة عن ذلك ، ومنها مشكلة الأمراض المستعصية ، سواء منها الخِلْقِيَّة المتمثلة في أنواع كثيرة من التشوهات الجنينية ، أو الكسبية المتمثلة في أمراض شتى ، من أبرزها وأخطرها أمراض الجنس .

ويلاحظ أن هذه المشكلات تتميز بطابعين اثنين :

أولهما : أنها ذات مضمون مادي ، ثانيهما : أنها ناجمة بشكل مباشر عن واقع هذه الحضارة الغربية ، وعن الخضوع الكيفي لسلطانها دونما قدرة على المحاكمة والنظر .

ونظراً إلى تطلّع إنسان هذه الحضارة ، في رغبة جادّة ، إلى سلوك أي سبيل مفيد ، لحلّ هذه المشكلات ، أو التخفيف من ويلاتها وآثارها الخطيرة ، فإنّ كثيراً من المسلمين ، لا سيما المهتمين منهم بالدعوة الإسلامية ، يرون ضرورة استغلال هذا التطلع لدى الإنسان الغربي ، أو لدى إنسان الحضارة الغربية عموماً ، وذلك بتقديم الإسلام إليه على أنه الملاذ الوحيد للتخلص من هذه المشكلات .

إن الإسلام الذي يعرضه اليوم كثير من الدعاة ، هو ذلك النظام الذي يحمل إلى الناس شرعة اقتصادية عادلة وناجحة ، والذي يحمل إليهم أفضل منهاج تربوي لرعاية الأسرة وحمايتها من التشرذم والاضمحلال ، ويتكفل بحماية صحة الإنسان من كثير من الآفات التي قد تتربّص به .

ويرى هؤلاء الناس أن الإسلام إذا قدّم إلى رجل الحضارة الغربية من خلال هذا المنظور ، أقبل إليه وتعلّق به ، وذلك نظراً لتطلعه إلى حياة اجتماعية واقتصادية وصحية أفضل .

وعلى الرغم من أننا لا نشك في أن الإسلام يضمن ، فعلاً ، تقديم حلول مثالية عملية لهذه المشكلات وغيرها ، إلاّ أن علينا أن نتساءل :

أمن المنطقي أن نعرّف هؤلاء الناس على الإسلام من خلال هذه المزيّة المحببة إليهم ، بسبب ظروف معينة زجتهم في طائفة من المشكلات .

والجواب أن هذه الطريقة ليست منطقية في ميزان الرؤية الفكرية ولا الإسلامية ، كما أنها ليست ناجحة على صعيد التجربة العملية .

أمّا أنها ليست منطقية ، فلأنّ التشريعات العملية والسلوكية في الإسلام ، فرع عن الجذور الاعتقادية التي تتمثل في نظرة الإسلام إلى الكون والإنسان والحياة .

أي إن الإيمان العقلي الصادق بالله عز وجل وصفاته وبكتابه ورسله وبالنشأة الثانية الآتية بعد الموت ، يورث المؤمن ثقة مطلقة بعظيم قدرة الله ودقة حكمته وبالغ رحمته بعباده ، ومن ثم يتهيأ عقلياً ونفسياً لقبول أحكامه التكليفية واليقين بأنها فعلاً ضمانة لسعادة الإنسان فرداً ومجتمعاً ، في حياته العاجلة هذه وحياته الثانية التي هو على موعد معها بعد الموت ؛ سواء تبيّن له وجه الحكمة أو المصلحة في شرعة تلك الأحكام أو لم يتبيّن له ذلك .

إذن فالتعامل مع الإسلام أو التعريف به ينبغي أن يبدأ بفهم الجذع والجذور الاعتقادية منه ، حتى إذا تم ذلك باليقين العقلي والاصطباغ الوجداني ، حان الانتقال من الجذع إلى الفروع والأغصان والثمار المتمثلة في الأحكام التشريعية والآداب السلوكية .

والمعنى المنطقي في هذا المنهج ، يتمثل في أن الأصول الاعتقادية تكون بمثابة الحماية أو الوعاء الحافظ لفروع الشريعة والأحكام التطبيقية ، لأن من المنطقي جداً أن نستدلّ على

سلامة التشريع من الأخطاء ، بمدى عبقرية المشرع وعدالته واستقامة خلقه ، ودقة اختصاصه العلمي في القانون والتشريع .

ولو عكسنا النظرة أو المنهج ، لوجدنا أنفسنا نستدل بدقة التشريع وسلامته من الأخطاء ومدى اتفاقه مع المصالح ، على عبقرية المشرع وعدالته ودقة تقديره للمصالح .

غير أن هذا الاستدلال لا يكون سليماً ، إلا عندما يكون الناظر المستدلّ أكثر عبقرية وأدق معرفة وعلماً وتقديراً لمعنى المصالح ، من واضع ذلك القانون أو التشريع . وفي هذه الحال تعود عملية النظر والاستدلال إلى المنهج المنطقي السليم ، غير أن المشرِّع الذي ينطلق الناظر من الإيمان بعبقريته وغزارة علمه ودقة عدالته ، في هذه الحالة ، هو شخص الناظر ذاته !.. فهو يجعل من اعتداده بذاته وبشخصيته العلمية مقياساً للقيمة العلمية التي يحملها ذلك التشريع .

وبوسعنا ، في كلتا الحالتين ، أن نقول إن الرجل منطقي في سيره وفهمه ، إذ هو في كلتا الحالتين ينطلق من الأصول إلى الفروع ، لا من الفروع إلى الأصول .

ولكن أفإن صحّ هذا في تقدير الناس ، بعضهم لأعمال بعض ، أفيصحّ في تقدير العبد لما قد قضى به الرب ؟

أي أفيستطيع الإنسان ، مهما بلغ شأوه واتسع علمه ، أن يجعل من علمه ودقة عدالته وفهمه مقياساً لحقيقة القيمة التي يحملها شرع الله تعالى إلى الناس ؟

والجواب واضح بداهة ، لكل من سبق أن آمن إيماناً حقيقياً بالله عز وجل . كيف ، ولو وجد في الناس من يملك هذا المقياس لما عجزوا جميعاً إلى يومنا هذا عن وضع ميزان ثابت لمعنى الخير والشر ، أو المصالح والمفاسد ، كما قد علمت أن أياً من علماء الفلسفة أو الأخلاق أو علم الاجتماع ، لم يستطع إلى اليوم أن ينجد الإنسانية بمثل هذا الميزان أو المقياس .

ثم إن ثلاثة أرباع التوافق القائم بين شرع الله ومصالح العباد ، مردّه إلى العلم الغيبي الذي تفرّد به الله تعالى عن عباده . فمهما أحبّ الإنسان أن يزن كثيراً من أوامر الله ونواهيه بالواقع المرئي أو التجارب الآنية ، فقد لا يهتدي على ضوء

ميزانه هذا إلى مظهر المصلحة أو الحكمة ، فيما قد قضى الله عز وجل به ، إذ الحكم الرباني فيه ، منوط بالنتائج والآثار الغيبية المقبلة ، لا بالصور والمظاهر السطحية الواقعة ، وإنما سبيل يقيننا بصلاحية هذه الأحكام ، بعد إيماننا بالله عز وجل ، الثقة الكلية بحكمته تعالى ورحمته وعدالته .

ومعنى هذا أننا لو قدّمنا إلى ضحايا الحضارة الغربية ، صورة موجزة أو مفصّلة عن الشرائع والأحكام الإسلامية المتكفلة ، بحلّ مشكلاتهم ومعضلاتهم الاقتصادية ونحوها ، لما اقتنعوا بصحتها وجدواها ، ولو اقتنعوا بصحتها فإنهم لا يجدون لديهم الصبر على تحملها وقسوة الانضباط بها .

ولكنا إن بدأنا بإدخال الإيمان الحقيقي بالله ووحدانيته في عقولهم ، ثم سعينا بالسبل التربوية السليمة إلى صبغ مشاعرهم الوجدانية بمقتضيات هذا الإيمان ، ثقة وتوكلاً وحباً وخشية وتعظيماً ، فإنهم يخضعون لشرع الله تعالى بكل ثقة وطمأنينة ، سواء لاحت لهم الحِكَمَ والمصلحة الكامنة فيها أو لم يظهر لهم شيء من ذلك ، ولعلك تذكر ، مصداقاً لما نقول ، ما حدّثتك به

من قصة الشاب الأوروبي المسلم الذي سألني عن الحكمة من حجب الشريعة الإسلامية حق الرئاسة عن المرأة .

فهذا ، هو الدليل المنطقي على أن الطريقة التي يدعو بها بعض الناس إلى الإسلام غير منطقية .

أمّا الدليل على أنها تجربة مخفقة ، فنذكّر لبيان ذلك بتجربة إسلام كثير من الأمريكيين الزنوج ، لقد كان دافعهم إلى الإسلام ما قد تأكد لهم من مقاومته للتفرقة العنصرية ، فأقبلوا يلوذون به على أنه خير أداة لأسوأ مشكلة كانوا يعانون منها . وهكذا أقبلوا يعتنقون الإسلام حباً بهذه المزية التي فيه بقطع النظر عن أي شيء آخر ، أي دون أن تهيمن عقائده على عقولهم ، أو أن تتأثر مشاعرهم منها بأي رغبة أو رهبة ، فمارسوه بأشكال منحرفة وزيفوه فهماً وسلوكاً ، وانقسموا في تصوره وممارسته إلى فئات وجماعات كلها تتنافس على القيادة والزعامة واصطناع النبوة .

وقد قدّم كثير من الدعاة الإسلاميين ، الإسلام للمجتمعات

الغربية على أنه يتضمن برامج محددة لحلّ المشكلة الاقتصادية وكثير من المشكلات الاجتماعية ، عن طريق كتابات أو محاضرات ، فما أغنى شيء من ذلك وما قدّم أو أخّر . بل إن في هؤلاء الدعاة من ركّز على هذا الجانب في دعوتهم الإسلامية ، ضمن مجتمعات وداخل دولٍ إسلامية ، ابتغاء تحويل أنظار كثير من المسلمين المفتونين بالثقافة والمدنية الغربية ، إلى البديل الذي يمتاز به الإسلام والذي تفتقر إليه المدنية الغربية .. غير أن تركيزهم هذا لم يأت بأي طائل ، لقد كان في هؤلاء المفتونين المستغربين من يُصغي إلى بعض تلك الدعوات ، فيندفع إلى بعض القراءات الإسلامية ، مركزاً على هذه الجوانب التي تهمه ، كالاقتصاد وبعض التشريعات . ولكني لا أعلم إلى هذه الساعة أن أياً منهم قد أعجب من الإسلام بهذه الفروع ، فانساق منها إلى الجذور والأصول الاعتقادية ، ثم تحول بذلك من الإعجاب الفكري بالنظم الإسلامية ، إلى الخضوع العقلي والقلبي لحقائق الإسلام الاعتقادية .

أجل ، فأنا لا أعلم إلى هذه الساعة أن واحداً من هؤلاء الناس وصل إلى جوهر الإسلام من هذا الطريق .

بل الملاحظ أن العكس كان ولا يزال هو الواقع المستمر ، يقرأ أحدهم في التشريعات والنظم الإسلامية ، بعين المتفحص الناقد ، كما لو كان يقرأ أفكاراً أو تشريعات ابتدعها أي إنسان مثله يمارس تجارب فكرية أو تشريعية محددة ، لذا فإنه سرعان ما يقف منها موقف المعترض أو المخطِّئ . ومهما أبرز إعجابه ببعض المسائل والنقاط ، فلابدّ أن يأتي إعجابه هذا مغموساً بالاستدراكات والتصويبات .

والسبب في ذلك واضح ، وهو أنه أقبل يتفحص النظم والتشريعات الإسلامية خلال فراغ اعتقادي منه فيما يتعلق بأصول الإسلام وجذوره .

ومهما حدثت الرجل الغربي أو إنسان الحضارة الغربية عن دقة القرار الإسلامي في تحريم الربا ، ومهما جمّعت لذلك من الأدلة الاقتصادية التي تؤكد الآثار الاقتصادية الضارة الناجمة

عن التعامل بالفائدة الربوبة فإنك لن تأتي بأكثر مما ذكره (آدم سميث) وأمثاله في هذا الصدد .

ولكن كما لم يستجب الغرب لأفكار سميث ، ولم يتحرر من التعامل بالربا ، فإنه من باب أولى لن يستجيب للأفكار ذاتها ولن يتحرر ، بناء على ذلك من الربا ، إعجاباً منه بالإسلام الذي يتبنى الأفكار الاقتصادية ذاتها .

ولقد ألقى كثير من الإسلاميين محاضرات فياضة ومعمقة ، عن أضرار المخدرات ومحاذيرها . من خلال ما قد قضى به الإسلام ، ألقوا محاضراتهم هذه ، في مجتمعات غربية ، ثم عادوا فألقوها على فئات من المسلمين المنساقين وراء بريق الحضارة الغربية .

فما أجدت محاضراتهم هذه فتيلاً ، هنا أو هناك .

ولكنّ هناك كثيراً ممن كانوا قد ابتُلوا بأصناف المخدرات إلى درجة الاستعباد ، أتيح لهم أن يصغوا إلى الحقائق الاعتقادية في الإسلام وإلى أدلتها الفطرية والمنطقية والعلمية ، ثم تهيأ لهم

السبيل إلى تغذية عواطفهم بما آمنت به عقولهم ، فلما فاضت أفئدتهم حباً لله ومخافة منه وتعظيماً له ، تحرروا من أسر ما استعبدهم من العادات والممارسات الجانحة كلها ، بما فيها المخدرات وغيرها .

☆ ☆ ☆

إن في هذا الذي أوضحناه لبلاغاً مقنعاً ، بأنّ سر الإسلام ليس كامناً في نظامه وتشريعاته الفوقية ، على أن فيه نظاماً وتشريعاً لا يدانيهما أيّ نظام أو تشريع ، وإنما سرّه في الشريان الاعتقادي الواصل إليهما من جذوره وأصوله الاعتقادية . ذلك الشريان العظيم الذي يبعث على اليقين والطمأنينة بأن الله لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلا عن الشر ، والذي يبعث على التفاعل الإيجابي التام مع قوله عز وجل : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُم ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُم ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢/٢١٦] .

إذن ، فليس من حاجة إلى أن نراهن ، بصدد دعوتنا

النـاس ، أيَّ نـاس ، إلى الإسلام ، على أنـه المتكفـل بحـلّ سـائر المشكلات الحضارية .

والـذي يشترط لاعتنـاقـه الإسـلام ، أن يتكفـل لـه بحـلّ المشكـلات التي يعـاني ويتـأفف منهـا ، لا يعتنـق ، في الحقيقـة الإسلام الذي هو الدينونـة الكاملـة بـالعبوديـة للـه والتسليم لـه بأوامره وشرعه ، وإنما يعتنق فيه أحلامه وأهواءه .

ولكن ، فلنـدَع الإسلام نفسـه ، يتكفل للمسلم الصـادق في إسلامه ، والمنطلق في فهمه واعتنـاقـه من الجـذور إلى الفروع ، بأنه سيقدّم له الحلول الحقيقية لسائر المشكلات .

ربما كان علينا واجب واحـد فقـط ، هو أن نلفت نظر أي متطلّع إلى الإسـلام ، إلى أنــه لن يسمع صـوت الإسـلام وهـو يتعهد ، ويـأخـذ على نفسـه ، بحلّ سـائر مشكلاتـه التي يعـاني منها ، إلا بعد أن يدخل رحابه ويلزم محرابه موقنـاً بـأنـه عبـد مملوك لله عزّ وجل .

وإلاّ ، فهل رأيت جنديـاً يدين بـالولاء لقـائـده ، قبل أن

يتبيّن هويتـه ويتـأكـد من قـدراتـه القيـاديـة واختصـاصـاتـه العسكرية ؟

وليكن هذا آخر حديثنا في هذه الحلقة ، وللحـديث صلـة وبقية في حلقات أخرى ، بتوفيق الله .